

المسحاة



المحاذ

مطبوعات مكتبة الزهر

الشحاذ

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

الطبعة
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

— ١ —

سحائب ناصعة البياض تسبح فى محيط أزرق ، تظلل خضرة
تغطى سطح الأرض فى استواء وامتداد ، وأبقار ترعى تعكس
أعينها طمأنينة راسخة ، ولا علامة تدل على وطن من الأوطان ،
وفى أسفل طفل يمتطى جوادا خشبيا ويتطلع إلى الأفق عارضا
جانب وجهه الأيسر وفى عينيه شبه بسمة غامضة . لمن اللوحة
الكبيرة يا ترى ؟ . ولم يكن بحجرة الانتظار أحد سواه . وعما
قريب يأنف ميعاد الطبيب الذى ارتبط به منذ عشرة أيام . وفوق
المنضدة فى وسط الحجرة جرائد ومجلات مبعثرة ، وتدلّت من
الحافة صورة المرأة المتهمة بسرقة الأطفال . رجع يتسلى بلوحة
المرعى . الطفل والأبقار والأفق . رغم أنها صورة زينة رخيصة
القيمة ولا وزن إلا لإطارها المذهب المزخرف بتهاويل بارزة .
وأحب الطفل اللاعب المستطلع والأبقار المطمئنة ولكن ازدادت
شكواه من ثقل جفونه وتكاسل دقّاب قلبه . وها هو الطفل ينظر
إلى الأفق ينطبق على الأرض . دائما ينطبق على الأرض من أى
موقف ترصده ، فيا له من سجن لا نهائى . وما شأن هذا الجواد
الخشبى ؟ ولم تمتلئ الأبقار بالطمأنينة ؟ . ولفت سمعه فى
الخارج حركة أقدام ثابتة ، ثم ظهر التمرجى عند الباب قائلا :
— تفضل .

ترى هل يتذكر رغم مرور ربع قرن من الزمان . ؟ ها هي

حجرة استقبال الطبيب الخطير ، وما هو يقف وسط حجرته
باسما ، بقامته المتوسطة النحيلة والوجه الغامق السمرة
والعينين البراقنتين والشعر القصير المفلفل. لم يكد يتغير عما
كان فى حوش المدرسة . وما زالت زاوية فمه تنحرف فى سخرية
مذكرة بمرحه المطبوع الذى كان يضاهى تفوقه الحاسم .

— أهلا عمر ، تغيرت حقا ولكن إلى أحسن !

— حسبتك لن تذكرنى !

وتصافحا بحرارة .

— ولكنك عملاق بكل معنى الكلمة ، كنت طويلا جدا

وبالامتلاء صرت عملاقا ..

وكان يرفع رأسه إليه وهو يحادثه فابتسم عمر فى سرور

وردد :

— حسبتك لن تذكرنى !

— أنا لا أنسى أحدا فكيف أنساك أنت !

تحية كريمة من طبيب خطير . وكثيرون يسمعون عن
الطبيب الناجح ولكن هل يعرف المحامى الفذ إلا أصحاب
القضايا ؟!

وضحك الطبيب وهو يتفحصه وقال :

— لكنك سمعت جدا . كائنك مدير شركة من العهد الخالى

ولا ينقصك إلا السيجار .

ضحكت أسارير الوجه الأسمر المستطيل الممتلىء ، وفى شئ

من الارتباك ثبت نظارته فوق عينيه وهو يرفع حاجبيه

الكثيفين .

— إنى سعيد بلقياك يا دكتور .

— وأنا كذلك وإن تكن مناسبة رؤيتى ليست بالسارة .

وتقهقر إلى مكتبه المختفى تحت أطلال من الكتب والأوراق

- والأدوات المكتبية النفيسة ثم جلس وهو يشير إليه بالجلوس :
- فلنؤجل حديث الذكريات حتى نطمئن عليك .
- وفتح دفترًا وأمسك بالقلم :
- الأسم : عمر الحمزاوي ، محام ، والسن ؟
- وضحك الطبيب عاليًا وهو يقول مستدركًا :
- لا تخف ، الحال من بعضه !
- ٤٥ عامًا .
- على أيام المدرسة كان الشهر يعتبر فارقًا في العمر له خطورته أما الآن فيا قلبي لا تحزن ، هل من أمراض خاصة في الأسرة .
- كلا ، إلا إذا اعتبرت الضغط بعد الستين مرضًا خاصًا .
- وشبك الطبيب ذراعيه وقال بجدية :
- هات ما عندك ..
- مسح عمر على شعره الغزير الأسود الذي لا ترى شعيرات سوائفه البيضاء إلا بعد البصر وقال :
- لا أعتقد أنني مريض بالمعنى المألوف .
- فازداد اهتمام الطبيب وهو يمعن فيه النظر باستمرار .
- أعنى أنني لا أشكو عرضًا من الأمراض المرضية المألوفة .
- نعم .
- ولكنني أشعر بخمود غريب ..
- أهذا كل ما هنالك ؟
- أظن هذا .
- لعله من الإجهاد المستمر .
- ربما ولكنني غير مقتنع تمامًا ..
- طبعًا وإلا ما شرفتنني ..
- الحق إنه نتيجة لذلك الخمود ماتت رغبتني في العمل بحال

لا تصدق ..

— استمر ..

— ليس تعباً بالمعنى المألوف ، يخيّل إلى أنى ما زلت قادراً على العمل ولكنى لا أرغب فيه ، لم تعد لى رغبة فيه على الإطلاق ، تركته للمحاسب المساعد فى مكتبى ، وكل القضايا تؤجل عندى منذ شهر ..

— ألم تفكر فى القيام بإجازة ؟

فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه :

— وكثيراً ما أضيع بالدنيا ، بالناس ، بالأسرة نفسها ، فاقننت بأن الحال أخطر من أن أسكت عنها .

— إذن فالمسألة ليست ..

— المسألة خطيرة مائة فى المائة ، لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك ، كل شىء يتمزق ويموت ، فخطر لى على سبيل الأمل أننى سأجد لذلك سبباً عضوياً .

قال الطبيب باسم :

— ما أجمل أن تحل مشاكلنا الخطيرة بحبة بعد الأكل أو ملعقة

قبل النوم ..

مضى به إلى حجرة الكشف . وأخذت عينة من البول ثم خلع عمر ملابسه ورقد على السرير الطبى . وتتابعتم الأوامر فأبرز لسانه ، وفتح بشد الجفنين عينيه ، ونقرت الأصابع الرشيقة على مواضع فى الصدر والظهر وضغطت بشدة على أماكن فى البطن ، واستعملت السماعة ومقياس الضغط ، وتنفس بعمق ، وسعل ، وهتف : أه من الحلق مرة ومن الأعماق مرة أخرى . وجعل يختلس النظرات إلى وجهه ولكنه لم يقرأ شيئاً . وفرغ الرجل من كشفه فسبقه إلى مكتبه وما لبث أن لحق به . واطلع الطبيب على نتيجة التحليل ثم فرك يديه وابتسم ابتسامة عريضة وقال :

- عزيزى المحامى الكبير ، لا شىء ألبتة .
تحرك جناحا أنفه الطويل الحاد وازداد وجهه توردا :
— ألبتة ؟ !
— ألبتة !
ولكنه سرعان ما قال بحذر :
— أخشى أن يكون الأمر أخطر مما تتصور
فقال الدكتور ضاحكا :
— ليست قضية أهلها لمضاعفة الأجر !
فضحك عمر وهو يرمقه بأمل فأكد الآخر قائلا :
— حسن ، إذن فاعلم أنه لا شىء ..
فتساءل عمر فى قلق :
— هل يقضى على بأن أسجن فى عيادات الطب النفسى ؟
— لا نفسى ولا دياولو !
— حقا ؟
— أجل ، أنه مرض برجوازي إن جاز لى أن أستعير اصطلاحا
حديثا مما يستعمل فى جرائدنا ، ليس بك من مرض ..
ثم بتمهل :
— ولكنى أرى فى الأعماق مقدمات لأكثر من مرض ، والحق
أنك جئت فى الوقت المناسب ، متى ألح عليك الخمود ؟
— منذ شهرين وربما أكثر قليلا ولكن الشهر الأخير كان
محزنا حقا .
— دعنى أصف لك حياتك كما أستنبطها من الكشف ، أنت
رجل ناجح ثرى ، نسيت المشى أو كدت ، تأكل فاخر الطعام ،
وتشرب الخمور الجيدة ، وترهق نفسك بالعمل لحد الإرهاق ،
ودماغك دائما مشغول بقضايا الناس وأملاكك ، وأخذ القلق
يساورك على مستقبل عملك ومصير أموالك ..

ضحك عمر بفتور وقال :

— صورة صادقة فى جملتها ولكنى لم أعد أهتم بشيء ..

— حسن ، لا شيء بك ، ولكن العدو رابض على الحدود ..

— كإسرائيل ؟

— وعند الإهمال سيدهمنا الخطر الحقيقى ..

— دخلنا الجد !

— اعتدل فى الطعام .. قلل من الشراب .. التزم برياضة

منتظمة كالمشى .. فلن تلقى ماتخشا ..

وانتظر وهو يفكر ولكن الدكتور لم يحرك ساكنا فسأله :

— ألن تكتب لى دواء ؟

— كلا ، لست قرويا لأقنعك بأهميتى بدواء لا يضر ولا يفيد ،

الدواء الحقيقى بيدك أنت وحدك ..

— وهل أعود كما كنت ؟

— وأحسن ، أنا رغم إرهاقى بالعمل ما بين الكلية والمستشفى

والعيادة أمشى كل يوم نصف ساعة على الأقل ، وأتبع نظاما

مناسبا فى الغذاء .

— لم أشعر يوما أنى تقدمت فى السن .

— الكبر مرض ، ولن تشعر به ما دمت تدفعه بحسن

السلوك ، هنالك شبان فوق الستين ، المهم أن نفهم حياتنا ..

— أن نفهم حياتنا ؟ !

— أنا لا أتفلسف طبعاً ..

— ولكنك تداونى بنوع من الفلسفة ، ألم يخطر لك يوما أن

تتساءل عن معنى حياتك ؟

فضحك الدكتور عاليا ثم قال :

— لا وقت عندى لذلك ، وما دمت أؤدى خدمة كل ساعة لإنسان

هو فى حاجة ماسة إليها فما يكون معنى السؤال ؟ !



(هناك شبان فوق الستين ، المهم أن نفهم حياتنا)

ثم بجدية ودود :

— قم فى إجازة .

— إجازتى متقطعة عادة كأنها ويك أند يستمر طيلة شهر

الصيف .

— لا ، خذ إجازة طويلة بالمعنى ، ومارس نظام معيشتك

الجديدة ، وسوف تبدأ بعد ذلك متجددا .

— هذا ممكن .

— توكل على الله ، ليس بك إلا نذير من الطبيعة فاستمع

إليه ، وعليك أن تنقص وزنك عشرين كيلو ولكن على مهل ودون

عنف .

ضرب على ركبتيه وانحنى انحناء خفيفة تؤذن بالتأهب

للقيام ولكن الدكتور بادره :

— مهلا ، أنت آخر زوار اليوم فلنجلس قليلا معا .

اعتدل فى جلسته باسم . دكتور حامد صبرى إنى أعرف ما

تريد . تريد طى ربع قرن من الزمان . وأن تضحك من أعماق

قلبك مرة أخرى .

— ما أجمل أيام زمان !

— الحقيقة يا دكتور ما أجمل كل زمان باستثناء (الآن) .

— صدقت ، التذكر شيء والمعاناة شيء آخر .

— ثم يتبدد كل شيء بلا معنى .

— لكننا نحب الحياة ، هذا هو المعنى .

— شد ما كرهتها فى الأيام الأخيرة !

— وها أنت تبحث عن الحب المفقود ، خبرنى أما زلت تذكر

أيام السياسة والإضراب والمدينة الفاضلة ؟

— طبعا ، وقد ولت جميعا ، ولم يبق إلا سوء السمعة .

— ومع ذلك فقد تحقق حلم كبير ، أعنى الدولة الاشتراكية .

— نعم ..

الدكتور وهو يبتسم :

— وكنت تظهر لنا بأكثر من وجه ، الاشتراكي المتطرف ،
المحامي الكبير ، ولكن وجها منك رسخ في ذاكرتك أقوى من أى
سواه ، هو عمر الشاعر !

ابتسم ابتسامة عصبية ليدارى امتعاضا مبالغتا وتمتم :

— يا لسوء الحظ !

— هجرت الشعر ؟

— طبعا .

— ولكنك طبعت ديوانا فيما أذكر .

فخفص عينيه حتى لا يقرأ فيهما توتره وضيقه وقال :

— عبث طفولة لا أكثر ولا أقل .

— بعض زملائى من الأطباء الشعراء يضحون بالطب فى

سبيل الشعر ..

ذكرى غبراء كالطقس المنحوس فمتى يسكت عنها ! .

وواصل الدكتور :

— وأذكر من أقراننا القدامى مصطفى المنياوى ، ماذا كنا

نطلق عليه ؟

— الأصيل الصغير ! ، ما زلنا أصدقاء لا نكاد نفترق ، وهو

اليوم صحفى نابه ومؤلف إذاعى تلفزيونى ..

— زوجتى مغرمة به جدا ، وقد كان متحمسا مثلك ، ولكن

رأس الحماس كان عثمان خليل بلا جدال ..

تجهم وجه عمر . لطمته الذكرى بقبضة من حديد . ثم غمغم :

— إنه فى السجن !

— نعم ، عمر طويل فى السجن ، أظنه كان زميلك فى كلية

الحقوق ؟

—تخرجنا فى عام واحد ، أنا ومصطفى وعثمان ، الحق إنى
لا أحب الماضى !
فقال بنبرة ختامية :
— فلتحب المستقبل .
ثم وهو ينظر فى ساعته :
— من الآن فصاعدا أنت أنت الطبيب .
فى حجرة الانتظار رفع عينيه مرة أخرى إلى الصورة ، لم
يزل الطفل ممطيا جواده الخشبى متطلعا إلى الأفق . وهذه
البسمة الغامضة فى عينيه أهى للأفق ؟ وما زال الأفق منطبقا
على الأرض ، فماذا يرى الشعاع الذى يجرى ملايين السنين
الضوئية ؟ وثمة أسئلة بلا جواب فأين طبيبها ؟
وفى الخارج أمام العمارة بميدان سليمان باشا ركب الكاديلاك
السوداء فتحركت به كباخرة عروس النيل .

- ٢ -

الوجوه تتطلع إليه مستفسرة . حتى قبل أن ترد تحيتك .
حنان رقيق مخلص ولكن ما أفضع الضجر . الحموضة التي تفسد
العواطف الباقية . ولاحت من ورائهم الشرفة الكبير المطلة على
النيل من الدور الرابع . وتبدى عنق زوجك من طاقة فستانها
الأبيض غليظا متين الأساس . واكتظت وجنتاها بالدهن ، وقفت
كتمثال ضخم ملء بالثقة والمبادئ ، وضاعت عيناها الخضراوان
تحت ضغط اللحم المطوق لهما ، أما ابتسامتها فما زالت تحتفظ
ببراءة رائقة ومحبة صافية .

- قلبى يحدثنى بأن كل شىء طيب ..

إلى جانبها وقف مصطفى المنياوى فى بدلتة الشركسكين
رافعا نحوك وجهه البيضائى الشاحب وعينييه الذابلتين وصلعته
التاريخية ، وقد بدا ضئيلا فى نحافته إلى جانب الزوجة
المحكمة البناء .

- حدثنا عن زميل المدرسة ، ماذا قال وهل عرفك ؟

واعتمدت بثينة بكوعها على كتف تمثال برونزى لامرأة
باسطة الذراعين فى هيئة مرحبة ، وتطلعت إلى أبيها فى تشوق
بعينيها الخضراوين ، وهى تكرر صور أمها عندما كانت فى
الرابعة عشرة ، بقامتها الرشيقة ، ولكن يبدو أنها لن تتعملق مع
الأيام ولن تسمح للدهن بأن يغطى على صفائها . تساءلت بنظرة

كما تتفاهم معك كثيرا دون كلام ، أما جميلة - أختها الصغيرة -
فحكفت على دبتها بين مقعدين كبيرين ولم تهتم بالقادم .
وجلسوا جميعا ثم قال بهدوء :

- لا شيء .

هتفت زينب بنبرة جامدة :

- الحمد لله ، طالما قلت إنك بحاجة إلى الراحة .

فأحلقه انتصارها بلا سبب ، وخاطب مصطفى - مشيرا
إلى زوجته - قائلا :

- هي المسئولة أولا وأخيرا !

ولما فرغ من تلخيص رأى الدكتور عاد يؤكد رأيه :

- هي المسئولة أولا وأخيرا !

فقال مصطفى بحبور :

- يا له من علاج هو باللعب أشبه !

ثم مستدركا فى أسف :

- لكن الطعام والشراب ! .. اللعنة على الزمن ..

لم تلعن وأنت لم تصب بسوء ؟ ماذا يفعل المقبل على رحلة
غامضة ! . الحائر بين الحب والضجر . الذى لم يحدث نفسه بعد
بطريقة شافية . وقال لمصطفى :

- الدكتور حامد سأل عن الأضلع الصغير ..

ثم بعد أن سكنت عاصفة الضحك :

- وهنيئا لك أعجاب زوجته !

ابتسم مصطفى فى سرور صبيانى لعت به أسنانه الناصعة
البياض :

- أصبحت بفضل الإذاعة والتلفزيون كالوباء ولا بد أن
أصيب بضعيفى المناعة .

وذكر الآخر فى السجن . حتى حساسية الضمير يدركها



(الحمد لله ، طالما قلت إنك بحاجة إلى الراحة)

الضجر . يوم احترقت بلهيب الخطر . لكنه لم يعترف . رغم
الأحوال لم يعترف . وذاب فى الظلمات كأن لم يكن . وأنت تمرض
فى الترف . وتنهض الزوجة رمزا للمطبخ والبنك . فسل نفسك
ألا يضجر النيل تحتنا .

— بابا ، هل نستعد للسفر ؟

— سنمرح كثيرا وسوف أعلم أختك السباحة كما علمتك فيما

مضى ..

— حتى البراميل !

ها هى أمك تحاكى البرميل . والأفق يحاكى السجن . والحرية
استكنت وراء الأفق . ولم يبق من أمل إلا الضمير المعذب . وقال
مصطفى :

— زوجى تفضل رأس البر للأسف ومثلى لن يظفر بإجازة
شهر كامل إلا إذا أضيف بسرطان ممتاز ..

وتساءلت جميلة رافعة رأسها عن الدبة :

— متى نسافر يا بابا ؟

ولاح له مصطفى كنصب تذكارى للحب والزواج . كان
المشير والمعين والشاهد . وكل يوم يؤكد صداقته له وللأسرة .
ولم يدر شيئا بعد عن المياة التى تجرف قاع النهر .

— وذكرنى الدكتور بأيام الشعر !

فضحك مصطفى قائلا :

— الظاهر أنه لم يسمع عن روائى الدرامية الحالية ؟

— وددت لو أحكى له قصتك مع الفن .

— ترى هل يؤمن النطاسى الكبير بالفن ؟

— زوجته مغرمة بك ، ألا تقنع بذلك ؟

— إذن فهى مغرمة باللب والفسار .

وكانت زينب تراقب السفرجى من خلال الديكور المقوس

وما لبثت أن قالت :

— هلموا إلى العشاء .

وأعلن عمر أنه سيكتفى بشريحة من صدر الدجاج وفاكهة
وكأس واحدة من الويسكى فتساءل مصطفى :

— والبطارخ على سبيل المثال هل ألتهما وحدي ؟

وراح مصطفى يتحدث عن إقطار مستر تشرشل الذى نوهت
به إحدى الصحف فى أثناء زيارته لقبرص . وقد تردد قليلا عند
بدء الطعام ثم ما لبث أن أكل وشرب بلا حساب . ولم تستطع
زينب كذلك أن تقاوم الإغراء وشربت زجاجة من بيرة ، وواظبت
بثينة على اعتدالها التى تعتده أمها نوعا من الاعوجاج . وقال
مصطفى :

— الطعام أجدر من الجنس بتفسير السلوك البشرى ..

فنسى عمر نفسه وقال بمرح لأول مرة :

— يخیل إلى أنك مصاب بعقدة الدجاج ..

وعقب العشاء لم يجتمع شملهم أكثر من نصف ساعة ، نامت
بعدها جميلة ، ومضت الأم وبثينة إلى زيارة فى نفس العمارة
فخلا عمر إلى مصطفى فى الشرفة الكبيرة حيث استقرت بينهما
زجاجة ويسكى ووعاء به ثلج فوق منضدة زجاجية السطح . ولم
تند عن الأشجار حركة واحدة ، وانتشرت حول المصابيح غلالة
ترايبية . وبدا النيل من ثغرات أعالي الشجر ساكنا هامدا شاحبا
معدوم المرح والمعنى . وشرب مصطفى وحده وتمتم باستياء :

— يد واحد لا تصفق .

فأشعل عمر سيجارة وهو يقول :

— ما أفظع الجو ، لم أعد أحب شيئا حبا خالصا .

فقال مصطفى ضاحكا :

— أذكر أنك كرهتنى يوما ما ..

فقال دون توقف عند قوله :

— أخشى أن يتكرر موقفى تجاه العمل إلى مالا نهاية .
— عليك بالرجيم والرياضة ، ولن يهون عليك أن تخون بثينة
وتقع فى اليأس .
— سوف أشرب كأسا أخرى .
— لا بأس ، ولكن كن أكثر حزما فى الاسكندرية .
— تقول اننى كرهتك يوما ما ، أنت كاذب كأكثر أهل
صناعتك !

— كنت تضيق بى على عهد إيمانى الشديد بالفن .
— كنت وقتذاك أعانى نزعة من نفسى .
— أجل ، كنت تقاتل حبه الكامن فيك وتهجره بقسوة . وكنت
أنا فى ذلك الوقت وجها من وجوهه جديرا بإثارة الشجون .
— ولكنى لم أكرهك ، وجدتك فقط ضمييرا معذبا .
— وقد احترمت أزمته بعقل متسامح . وصممت على
الاحتفاظ بك وبالفن معا ..
ثم وهو يضحك :

— ولعلى أرحمتك كثيرا عندما قررت نبذ الفن بقوة مذهلة ،
وها أنا أبيع اللب والفشار من طريق الصحف والإذاعة
والتلفزيون على حين تنهض أنت قمة من قمم المحاماة فى ميدان
الأزهار !

ذكريات معادة . كالقيظ والغبار . دورات محكمة الإغلاق .
والطفل الباسم يتوهم أنه يمتطى جوادا حقيقيا .
— ضجر يضجر اضجر فهو ضجر وهى ضجرة والجميع
ضجرون وضجرات ..
— الرجيم والرياضة !
— يا لك من مضحك .

— هى رسالتى فى الحياة ، التسلية ، والجمع تسليات ، قديما
كان للفن معنى حتى أزاحه العلم من الطريق فأفقدته كل معنى ..
— أما أنا فقد نبذته دون تأثر بالعلم ..
— إذن لماذا نبذته ؟
ماكر كالقيظ . وهذا الليل لا شخصية له . وضجيج الطريق
ولا طرب . الماكر يسأل وهو يعلم .
— دعنى أسألك أنت من السبب ؟
— قلت وقتذاك أنك تريد أن تعيش وأن تنجح ..
— إذن لماذا طرحت السؤال ؟
ها هى نظرة اعتراف تقلق فى عينيه الذابلتين من رمد
قديم .

— أنت نفسك تنبذه بسبب العلم وحده !
— زدنى علما ؟
— عجزت عن أن تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى
العلم !

فضحك مصطفى بصفاة مفسول بالويسكى وقال :
— لا تخلو حركة هروبية من فشل ، ولكن صدقنى أن العلم
لم يبق شيئا للفن ، ستجد فى العلم لذة الشعور ونشوة الدين
وطموح الفلسفة ، صدقنى أنه لم يبق للفن إلا التسلية ،
وسينتهى يوما بأن يصير حلية نسائية مما يستعمل فى شهر
العسل .

— ما أجمل أن أسمع ذلك . انتقاما من الفن لا حبا فى العلم .
— اقرأ أى كتاب فى الفلك أو فى الطبيعة أو فى أى علم
من العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات أو دواوين الشعر ثم
أختبر بدقة إحساس الخجل الذى سيجتاحك ..
— ما أشبه هذا الشعور بما ينتابنى عندما أفكر فى القضايا

- والقانون ..
- هذا الشعور المخجل لا يعانيه إلا الفنان المنبوذ من الزمن..
- فتثائب عمر ثم قال :
- اللعنة ، إنى أشم فى الجو شيئا خطيرا ، ويرعبنى إحساس حركى داخلى بأن بناء قائما سيتهدم ..
- ملأ مصطفى كأسا جديدة وقال :
- لن نترك بناء كى يتهدم !
- فمال نحوه مقطباً وسأله :
- ماذا تظن بى ؟
- الإجهاد والتكرار والزمن .
- وهل فى الرجيم والرياضة الكفاية ؟
- كل الكفاية ، أمتقد ذلك من كل قلبك ..

— ٣ —

من الآن فصاعداً أنت الطبيب . فأنت حر . والفعل الصادر
عن الحرية نوع من الخلق . حتى ولو يكن مقاومة مستمرة
لشبهوات البطن . ولنقل أن الإنسان لم يخلق ليكتظ بالأطعمة .
ويتحرر المعدة تتحرر الروح كذلك وتحلق . لذلك ترق السحب و
ترنم عواصف أغسطس الصاخبة . ولكن ما أشد الزحام والرطوبة
ورائحة العرق . وأجهدك المشى وناءت به قدماك كأنما تتعلمه
لأول مرة . والأعين ترمق العملاق وهو يوسع الخطى حتى ينال
منه التعب فيجلس على أول أريكة تصادفه على طريق الكورنيش .
وعيناك ترمقان الناس بعد عمى ربع قرن . هكذا شهد الشاطئ
مولد آدم وحواء ولكن لا يدري أحد من سيخرج من الجنة . وقديما
قطع الشاب الطويل النحيل ابن الموظف الصغير القاهرة طولا
وعرضا على قدميه دون تدمير . وسلسلة طويلة من آبائه وأجداده
تهرأت أقدامهم من معاندة الأرض ثم تساقطوا من الإعياء .
وقريبا سيخرج الماضي من السجن فيضاعف عذاب الوجود

— عثمان ، لماذا تنظر إلى هكذا ؟

— ألا تريد أن تلعب الكرة ؟

— أنا لا أحب الرياضة .

— لا شيء غير الشعر ؟ !

وأين المهرب من نظراتك الثاقبة ؟ وما الجدوى من

مجادلتك؟ وأنت تعلم أن الشعر هو حياتي وأن تزواج شطرين
ينجب نغمة ترقص لها أجنحة السماوات .

— أليس كذلك يا مصطفى ؟

وهتف المراهق الأصلع :

— هذا الوجود من حولنا ليس إلا تكويننا فنيا ..

ويوما هتف عثمان في حال من التجلى :

— عثرت على الحل السحري لجميع المشاكل ..

واندفعنا برعشة حماسية إلى أعماق المدينة الفاضلة .
واختلت أوزان الشعر بتفجرات مزلزلة . واتفقنا على ألا قيمة
ألبنة لأرواحنا . واقترحنا جاذبية جديدة غير جاذبية نيوتن يدور
حولها الأحياء والأموات في توازن خيالي لا أن يتطاير البعض
ويتهوى الآخرون . وعندما اعترضتنا دورة فلكية معاكسة
انتقلنا من خلال الحزن والفشل إلى المقاعد الوثيرة ، وارتقى
العماق بسرعة فائقة من الفورد إلى الباكار حتى استقر أخيرا
في الكاديلاك ، ثم أوشك أن يغرق في مستنقع من المواد الدهنية .
وها هي الشمس تترامى ملتصقة الشراريب فتكون قبة
هائلة دائية مختلطة الألوان ، تستلقى تحتها الأبدان شبه
العارية . وتنتشر في الجو رائحة آدمية عميقة الأثر في الحواس
مذابة في رائحة البحر المتحدية تحت شمس تخلت عن بطشها .
ووقفت بثينة بقدها الممشوق ، مبللة الجسد ، محمرة الذراعين
والساقين ، مدسوسة الشعر في غطاء أزرق من النايلون ، مفترية
الشعر لفرخة الشاطئ . وأنت شبه عار ، مغطى الصدر بدغل
من الشعر الكثيف الأسود ، وقد استكنت بين ساقيك جميلة وهي
تبني هرما من الرمال . واضطجعت زينب على مقعد جلدي طويل
وراحت تطرز أفواف وردة على رقعة كانفاه ، متباهية بتضخم
صحى فلم تعد نظرات مراقبة بلهاء تحوم حول صدرها الناهض.



ووقفت بثينة بقدها المشوق ، مبللة الجسد ، محمرة
الذراعين والساقين ، مدهوسة الشعر فى غطاء أزرق

عزيزى مصطفى . قرأت تعليقاتك الفنية الأسبوعية . بديعة
ولاذعة وموحية . تقول أنك يانع لبن وفشار ؟ . مهلا ، لكنك من
أصل كريم ، وصاحب قلم تمرس طويلا بالنقد الجدى والمسرحى ،
فحتى تسلياتك لها نكهة خاصة . أشكرك على سؤالك عنا ولكن
خطابك جاء موجزا لدرجة مزعجة ولعلك اعتبرته تكملة شكلية
لمقالاتك ولكنى فى مسيس الحاجة إلى ثرثرة لا نهائية . زينب عال
وهى تقرئك السلام وتذكرك بالدواء الذى رجتك أن تحصل عليه
من الخارج بواسطة أى من زملائك الرحل . متاعب مصراتها هيئة
فى رأى ولكنها مغرمة بالدواء كما تعلم . . بثينة سعيدة وكم
أود أن أتسلل إلى عقلها ولكن أسعدنا بغير جدال هى جميلة التى
لا تفهم شيئا بعد . ولو أنك رأيتنى لدهشت للتقدم الذى أحرزته .
فقد نقصت ثمانية كيلو ومشيت آلاف الكيلومترات وحسيت
بأطنان من اللحوم والبطارخ والزبد والبيض وعرفت الاشتياق
إلى الطعام بعد شبع طويل لدرجة الموت . ولأنك بعيد فإننى لا
أجد من أحادثه كما أحب ولذلك كثيرا ما أحدث نفسى . كلام زينب
أعقل مما يجب ، لماذا يثيرنى الكلام العاقل فى هذه الأيام ؟ .
الشخص الوحيد الذى أعجبنى حديثه رجل مجنون ، يرفع يده
بالتحية على طريقة الزعماء طوال الطريق . ويلقى خطبا
عجيبة ، وقد التقيت به فيما وراء شاطئ جليم بكيلى على الأقل
فبادرنى :

— ألم أقل لك ؟

فأجبت باهتمام :

— فعلا ..

— ولكن ما الفائدة ؟ .. ستمتلىء المدينة غدا بسمك موسى ولن

تجد موزعا لقدم .

— على البلدية أن ..

لكنه قاطعنى بحدة :

— لن تفعل البلدية شيئا ، سوف ترحب به تشجيعا للسياحة ،
وسوف يتكاثر بصورة مذهلة حتى يضطر السكان الأصليون
للهجرة فيمتلئ الطريق الزراعى بطوابير المهاجرين ورغم ذلك
كله سيواصل ثمن السمك صعوده ..

وتمنيت أن أتسلل إلى رأسه أيضا . لغته لا تقل غرابة عن
لغة العلماء الأفذاذ أصحاب المعادلات ، وما أضيعنا نحن العقلاء
بين الاثنين ، نحن الذين نعيش فى السماجة المجسمة ، لا نعرف لذة
الجنون ولا أعاجيب المعادلات . رغم ذلك فأنا رب أسرة سعيدة .
تعال وشاهدنى وأنا أناجى بثينة على حين تهاجمنا جميلة
بالرمال . وبيتنا فى جليم مريح جدا . وحنينى إلى الويسكى
يشتد بصورة ملحوظة . وأمس ونحن فى الكابينة مساء ترمى
إلينا صوت جارنا وهو يتحدث قائلا :

— العمارات ستؤمم .

اصفر وجه زينب وحدجتنى بنظرة استغاثة فقلت لها :

— لدينا من المال الشيء الكثير ..

فتساءلت :

— وهل تنجو الأموال ؟

— لقد تحصنا ضد القدر بتأمينات شتى ..

فراحت تتسائل فى قلق :

— ومن أدرانا ! ..

فقاطعتها :

— بالله خبرينى كيف سمنت إذن لهذا الحد ؟ !

فهتفت بى :

— كنت فى شبابك مثلهم لا تتكلم إلا عن الاشتراكية ، وهى

ما زالت فى دمك !

ثم كررت على أن أذكرك بالدواء . مصطفى ، أنا لا يهمنى شيء ، لا يهمنى شيء صدقنى ، لا أدرى ماذا حصل لى ، لن يهمنى شيء ، المهم عندي أن نلتقى لنستأنف هذرنا ومناقشاتنا الجميلة التى لا معنى لها . وقد رمت لى الصدفة بحديث غرامى فى الظلام دون أن يفتن لوجودى أصحاب الشأن . قال الرجل :
— عزيزتى نحن منحدرون إلى خطر مؤكد ..

فقال المرأة :

— هذا يعنى أنك لا تحبنى .
— لكنك تعلمين تماما أننى أحبك .
— إذا تكلمت بعقل فهذا يعنى أنك لم تعد تحبنى .
— ألا ترين أننى مسئول وأننى جاوزت الشباب ؟
— قل أنك لم تعد تحبنى ..
— سوف نهلك معا ونخرب بيتنا ..
— ألا تكف عن المواعظ ؟
— لك زوجك وبناتك ولى زوجتى وأبنائى ..
— ألم أقل لك إنك لم تعد تحبنى ؟
— ولكننى أحبك .
— إذن فلا تذكرنى بغير الحب .

وابتعدت وأنا أتخيل الدراما الممتعة الفاضحة وأضحك لجرأة المرأة وتهافت الرجل . ولكنهما ذكرانى بصديق قديم اسمه الحب . يا إلهى ما أطول العمر الذى مضى دون حب . وماذا بقى لنا منه عدا ذكريات محنطة ؟ . كم أتمنى أن أتسلل إلى قلب عاشق . وأنا كما تعلم لم أحب فى حياتى سوى زينب ولكن كان ذلك منذ عشرين عاما . وما أذكره من ذلك التاريخ حركات ومواقف لا مشاعر وانفعالات . وأذكر أننى قلت لك يوما (عيناها تصعقانى)

وأذكر أنك لم تتخل عنى أبداً ، وأن حالتى كانت جنونية . ولكن ذكرى الجنون غير الجنون نفسه . كنت محموم الفكر بركانى القلب ساهر الليل . ورفعنى العذاب إلى الشعر وسحت من عينى دموع وتوثقت أسبابى بالسماء ولكن كل أولئك ذكريات محنطة . وها أنا اليوم أكافح للتملص من المواد الدهنية ولا أرى فى زينب العزيزة إلا تمثالا لوحدة الأسرة والبناء والعمل . وثق من أنه لا يهمنى شيء . فليأخذوا العمارات الثلاث والأموال السائلة . ولن أزعم أننى أستهين بذلك بتأثير من المبادئ التى أوشكت يوماً أن تقذف بنا جميعاً إلى السجن مع عثمان ، فأيام الجهاد نفسها لم تعد إلا ذكريات محنطة ، ولكننى لا أدري ماذا حل بى أو ماذا غيرنى ، فأبشر يا عزيزى بأننى أتقدم نحو شفاء جسمائى واضح ولكنى أقتررب فى الوقت نفسه من جنون طريف والعقبى لك .

— لا تنس أن تكتب له من الدواء .

— فعلت يا عزيزتى ..

ما أطفك يا بئينة . براعم صدرك تشهد للعالم بحسن الذوق . ولعل من جيل محافظ نوعاً فماذا أعدت أمك ؟ .. من المحزن أنك لم تعرفى من الدنيا شيئاً ، وأننى صنتك كالكنار فلم تتجاوزى سيارة المدرسة . وهذه النظرة الحاملة ماذا وراءها ؟ ألم تضنى على بحلم رغم الصراحة التى تبارك أحاديثنا ؟ . وكيف تؤثر فيك رائحة الأبدان العارية ؟ ، والغزل المتطاير بين الأمواج ، يا إلهى ادفع المجتمع إلى مجازاة أفكارها وفعالها حتى لا تتعرض لسوء . وقال لها وهى تمد ساقها العاريتين تحت مقعده المغروس فى الرمل :

— لم نهناً ببعضنا هكذا من قبل !

— الحق عليك ..

— لم أبق فى المكتب طيلة العمر إلا من أجلكم .
فانطرحت على كوعيه معرضة بطنها وصدرها للشمس المتألقة
فى سماء صافية على حين تهادت فوق منحنى الخليج سحابة
بيضاء وحيدة . وقالت الام دون أن ترفع رأسها عن الكنفاء :
— قولى له أن صحته اليوم أهم من أى شىء ..
— حتى من تأميم العمارات ؟
فأجابت متحدية مقطبة :
— حتى من تأميم العمارات ..
فقال بنبرة تقريرية مستسلمة :
— ما أجمل أن نتكيف مع مجتمعنا ..
ولم تنبس بكلمة . ومرت أمام المجلس حسناء معجبة بنفسها
فخطف منها نظرة أشاعت فى حواسه بهجة ياسمينية .
— عندما أعود إلى حالتى الطبيعية سأحاول أن أفهم الحياة
فهما جديدا يقرنها بالسعادة الحقيقية ..
— لنسأل الله أن يحفظنا من كل سوء ..
— الله يحب أن نسأله الخير للناس جميعا ..
واسترق إليها نظرة مأكرة ثم قال ضاحكا :
— ولكن كيف يستجيب الله للدماء فى هذه الحال ؟
وأدركت ما يعنيه ولكنها لم تعلق بكلمة واحدة . وتناسى
الموضوع كله واستسلم لأفكاره . خف الوزن ودب النشاط ولكن
ما أفزع القلق . الذباب والعمل والزوجة . ويوما ستجد بثينة
ما يشغلها عنك ومثلها جميلة التى تشيد الأهرام من الرمال .
خبرنى بالله ماذا تريد ؟ . ولماذا يخيم الصمت رغم الضجيج ؟ .
ولم يتنبأ شىء فى صدرك بمخاوف هوائية ؟ . وفى كل لحظة
تشعر بأن صلة تتمزق محدثة صوتا مزعجا ، وأن قائما يتزعزع
وأن أسنانك توشك أن تتساقط . وسوف تفقد الوزن فى النهاية

وتشبح فى الفضاء . اشدد قبضتك على الأشياء ، وانظر إليها
طويلا فعما قليل ستختفى ألوانها . ولن يكثر لك أحد . وها هى
الأمواج تطيح بأهرام جميلة المشيدة من الرمال . والهواء يطير
الصحف التى لا حقيقة ثابتة فيها إلا صفحة الوفيات . ويقول لك
الرجل (هذه هى قضيتى أعهد بها إلى سيد المحامين) . يا
للسخرية ! .. لم يبق لنا يا حضرات المستشارين إلا أن نعمل معا
فى السيرك القومى .

— لماذا تسرح يا عزيزى ؟

— لا شىء ..

— هل أنت بخير تماما ؟

— أظن ذلك .

— ولكن خبرتى الطويلة بك تقول إنك فى حاجة إلى عناية ..

— يجب أن نحترم الخبرة ..

— هل أحدثك عن رأى الطبّاخة ؟

— وهل للطبّاخة رأى ؟

— قالت أن الرجال السعداء الناجحين عرضة للعين ..

— وهل تصدقين ذلك ؟

— كلا طبعا ولكن الحيرة تحملنا أحيانا على تجربة أى شىء !

— إذا فما عليك إلا أن تتفقى مع شيخة زار !

— ألا ترى أن السخرية لم تكن من شيمتك ؟

فقال باسم :

— قليل من السخرية يفيد ولا يضر !

— لن أثقل عليك يا عزيزى .

وهم عائدون تأخرت به قليلا عن البننتين وقالت :

— إليك خبرا سارا ..

تطلع إليها فى يأس خفى :

- اكتشفت فى بثينة شيئا لم يكن فى الحسبان !
— غير ما اكتشفت فى العام الماضى ؟
— بلى ، أنها يا عمر شاعرة !
رفع حاجبيه الكثيفين فى دهش :
— نعم .. لاحظت أنهماكها فى الكتابة ، وأنها تمزق ما تكتب
ثم تعيد كتابته ، وأخيرا أعترفت لى بأنها تكتب شعرا ، فضحكت
وقلت لها ..
وترددت فسألها :
— ماذا قلت لها ؟
— قلت لها أنك بدأت كذلك شاعرا ..
فتساءل مقطبا :
— ألم تخبريها كيف انتهيت ؟
— لكن أن تكون بنت فى سنها شاعرة شيء جميل .
— فعلا ..
— يجب أن تقرأ شعرها وأن تزودها بنصائحك ..
— لو لنصائحى قيمة لأجدت معى !
— ولكنك سعيد بالخبر ؟
— جدا ..

— ٤ —

ولكن الاضطراب غطى على السعادة المؤقتة . وهذا احساس
عاصف كأنه نوع من الذعر . وثمة جيشان يرعى الصدر لم يقربه
منذ عشرين عاما . وناداهما إلى الشرفة المطلة على البحر فجاءت
فى بلوذة مزركشة وبنطلون بنى يضيق تدريجيا حتى يلتصق
بالساقين فوق الرسغين . أجلسها قبالتها وهو يقول :

— رأيت أن أدعوك لتشهدى معى الغروب ..

همت بالاعتذار فيما بدا له ، وكان يعلم أن ذاك وقت خروجها
مع أمها وأختها لنزهة الأصيل على الكورنيش ، ولكنه قال :

— ستلحقين بهما سريعا ، ألا يحب الشعراء الغروب ؟

ولاحظ تورده وجنتيها بشغف وهو يبتسم :

— لكن .. لكنى لست بشاعرة !

— ولكنك تكتبين شعرا .

— ومن أدرانى أنه شعر ؟

— سوف أحكم بعد الاطلاع !

— كلا .

نطقت بها فى إشفاق وحياء فقال :

— لا سر بيننا وأنا فخور بك .

— ما هو إلا كلام ركيك ..

— سأحب شعرك حتى ركيكه
أسبلت جفنيها فى استسلام حتى تلاقت رموشها الطويلة
المقوسة إلى أعلى ، وإذا به يسألها فى اهتمام من الأعماق ؟
— خبرينى يا بثينة كيف اتجهت نحو الشعر ؟
— لا أدرى !
— أنت متفوقة فى العلوم ولكن كيف اتجهت نحو الشعر ؟
وهى تتذكر مقطبة :
— المختارات المدرسية ! .. أحببتها جدا يا بابا ..
ولكن ما أكثر من يحبونها ..
— كانت تسحرنى بدرجة أقوى فيما أعتقد ..
— ألم تقرئى غير ذلك من الشعر ؟
— بلى ، قرأته فى دواوين ..
— دواوين ؟ !
فضحكت قائلة :
— استعرتها من مكتبتك !
— حقا ؟ !
— وعرفت أنك شاعر أيضا .
وخزه ألم فدفة للتظاهر بالمزيد من المرح وقال :
— لا .. لا .. لست شاعرا .. كانت لعبة من لعب الطفولة ..
— مؤكد أنك كنت شاعرا ، على أى حال وجدتنى مدفوعة إلى
الشعر دفعا ..
أنت تتحدث عن المسرح ولكنى شاعر ، وأنا ملقى فى دوامة لا
نجاة منها إلا بالشعر فهو غاية وجودى ، وإلا باللة خبرنى ماذا
نصنع بالحب الذى يكتنفنا كالهواء ؟ ، والأسرار التى تلفحنا
كالنار . والكون الذى يرهقنا بلا رحمة ؟ ، فلا تكن مكابرا يا
صديقى .

— زیدینی شرحا ؟
قالت وهى تسترد شجاعتها المألوفة :
— كائننى أبحث عن أنغام فى الهواء !
— قول جميل يا بثينة ، وهو كذلك ما دام لا يفسد علينا
الحياة ..

— ماذا تقصد يا بابا ؟
— أعمى دراستك ، ومستقبلك ، ولكن أن لى أن أطلع على
شعرك !

أتته بكراسة مغلقة بورق مفضض . وباحترام وحب واشفاق
ولهفة راح يقرأ . وتخلل قراءته عام ١٩٣٥ مداعبا ومعترضه . عهد
الحرمان والأمل والأسرار . والاضطراب المطوق للعباد . وأحلام
المدينة الفاضلة . ثم صوت عثمان وهو يرتعش هاتفا « عثرت على
الحل السحري لجميع المشاكل » .

ولكن البنات عاشقة . وربى إنها لعاشقة . البرعمة التى لم
تتفتح بعد . من هو ذو الجمال . الذى السحاب أنفاسه . والشمس
مرآته . الذى تتمايل الأغصان شوقا إليه . لماذا نضطرب إذا كرر
الأبناء سيرتنا ؟ . وما رأى أبى اذا سمعنى أحدث حفيدته فى
الحب ؟ !

— هذا شعر حقا !
تألق الفرخ أخضر فى عينيها وصاحت :
— حقا ؟ !

— شعر جميل .
— أنت تشجعنى يا بابا ليس إلا ..
— بل أقول الحق .
ونظر فى عينيها ثم سأل باسمها :
— ولكن من هو ؟

فانطفأت شعلة الحماس فى عينيها وتساءلت فى شيء من
الخيبة :

— من .. ؟

— من المقصود بالترانيم ؟

ثم بنبرة ثقة :

— لم يعرف السر مكانا بيننا ..

فقالت بالغاز لم يخل من فتور :

— ليس أحدا من الناس !

— ترى ألم أعد الصديق الأب ؟

— بلى ولكنه ليس أحدا من الناس .

— يهمنى أن أعرفه بعد إذنك ؟

— ولكنى أقول أنه ليس أحدا من الناس .

— أهو من الملائكة ؟

— ولا من الملائكة .

— ماذا هو إذن .. حلم .. رمز ؟

فى حيرة واضحة :

— لعله .. هو غاية كل شيء ..

مسح الرطوبة عن جبينه وساعديه وصمم بإرادة هائلة على

أن ينتزع من نفسه أية نية عبث أو سخرية أو استهانة وقال

بجدية :

— إذن فانت تعشقين سر هذا الوجود ؟

أجابت فى توتر حل محل شجاعته التلقائية :

— هذا جائز جدا يا بابا ..

وما أحققنا عندما نظن أنفسنا أغرب من الآخرين .

— كيف حصل ذلك ؟

— لا أدرى .. ، من الصعب أن أوضح ، ولكنى وجدت فى



إذن فانت تعشقين سر هذا الوجود ؟

ديوانك بدء الطريق ..
وضحك ضحكة عضلية خالصة وقال :
- مؤامرة عائلية ! .. أمك كانت تعرف من زمن وأطلعتك على
ذلك الشيء الذى تسمينه ديوانا ..
ولكنه شعر رائع .. وكم أنه ملهم !
وضحك ضحكة عالية لفتت إليه عازف البيانولا الذى كان
يرسل على الكورنيش أنغامه المتشنجة .
- أخيرا وجدت معجبة ! ولكنه لم يكن شعرا ، كان أوهاما
محترقة ، ومن حسن الحظ أنى تركته فى الوقت المناسب ..
- أما أنا فوجدت فيه ما أهتم به ..
- أذن فانت خالقة حتى فى قراءتك !
- أنت تقول هذا !
- وهذا هو حبيبك ؟
- كما إنه حبيبك !
كان . لا حبيب الآن . القلب لم يعد يفرز إلا الضياع . وبين
النجوم يترامى الفراغ والظلام . وملايين السنين الضوئية .
- ما رأيك يا أبى ؟
- لمثلك ينبغى أن أقول (أفعلى ما تشائين) .
فتساءلت فى مرح :
- ومتى تعود إلى الشعر ؟
- أدعى الله أن أعود إلى مكتبى أولا !
- أنى أعجب كيف هان عليك أن تهجرة ؟
فقال وهو يدارى ابتسامة حياء :
- كان لهوا ليس إلا ..
- والديوان يا بابا ؟
- توهمت يوما أننى سأستمر ..

— ولكنى أسألك عما أوقفك .
تدخلت شفتاه فى سخرية ولكنى سرعان ما ارتفع إلى حال
من الجدية الصادقة ودفعته رغبة صريحة إلى الاعتراف فقال :
— لم يسمع لغنائى أحد .
أضر بك الصمت .. وقال مصطفى محرضا :
— المثابرة والصبر !
وقال عثمان :
— أقذف بشعرك فى المعركة تظفر بآلاف المستمعين !
وأرهقك الصمت . وألج عليك الحرمان . وفتح الحب ذراعية .
وأثبت أنه لا قدرة له على الامتلاك . ويوما قال مصطفى بارتياح :
— أخيرا قبلت فرقة الطليعة مسرحيتى ..
وأشدد أرهاق الصمت . وقرر شمشون أن يهدم المعبد .
وسرعان ما استغرقه النوم .
وسألت بثينة :
— هل من الضروري يا بابا أن يستمع لغنائنا أحد ؟
فداعب خصلة من شعرها الأسود وقال :
— ما معنى أن ندعو سر الوجود من الصمت إلى الصمت ؟
ثم برقة وعطف :
— ألا تودين أن يسمع لغنائك الناس ؟
— طبعا ولكنى سأستمر على أى حال ..
— جميل ، أنت أفضل من أبيك ، هذا كل ما هنالك .
— ولكنك تستطيع أن تعود إلى الشعر اذا أردت ..
— الموهبة ماتت إلى الأبد .
— لا أصدق ، إنك فى نظرى دائما شاعر .
ما للشعر وهذا الطول والعرض ، والتفكير الدائب فى
القضايا ، وبناء العمارات ، والطعام الدسم لحد المرض ؟ !

وحتى مصطفى انحط يوما على المقعد الطويل مقوس الظهر
كأنما أوغل فى الكبر وقال :
— ما أضيع الجهد !
وقلت له بانزعاج :
— ولكن الطليعة ترحب بمسرحياتك ، وهى فن جيد حقا .
فلوح بيده بازدياء وقال :
— على أن أعيد النظر فى حياتى كما فعلت أنت ..
— طالما نصحت بالثابرة والصبر .
فبصق ضحكة خشنة وقال :
— لا فائدة من تجاهل الجماهير !
— أتريد أن تبدأ من جديد محاميا ؟
— مات القانون قبل الفن ، الحق أن مفهوم الفن قد تغير
ونحن لا ندرك ، عهد الفن قد مضى وانقضى ، وفن عصرنا هو
التسلية والتفريغ ، هذا هو الفن الممكن فى زمن العلم ، ويجب أن
نتخلى عن جميع الميادين عدا السيرك ..
— الحقيقة أننا نتحطم واحدا بعد آخر .
— بل قل أننا بلغنا سن الرشد ، انظر إلى نجاحك فى الحياة
على سبيل المثال ، وفى رأى أن الترفيه غاية جليلة لمتعبى القرن
العشرين ، وما نظن أنه الفن الحقيقى ليس إلا الضوء القادم من
نجم مات منذ ملايين السنين ، فعلينا أن نبلغ سن الرشد وأن
نولى المهرجين ما يستحقون من احترام !
— يخيّل إلى أن التفلسف قد قضى على الفن !
— بل قضى العلم على الفلسفة والفن ، فإلى مسرات التسلية
بلا تحفظ ، ببراءة الأطفال وذكاء الرجال ، إلى القصص الخفيفة
والضحكات المجلجلة والصور الغريبة ، ولنتنازل نهائيا عن غرور
الكبرياء وعرش العلماء ولنقتنع بالاسم المحبوب والمال الوفير ...

سرني ذلك رغم الحزن والأسف . مارست بتألم حقيقى
العواطف المتضاربة . وفكرت بذهول فيمن ازدوده السجن .
الأصلع المحبوب يهبك بلسم العزاء لفشلك . وتفوقا غير متوقع .
من غد سوف يطمح إلى القوة التى امتلاكها ولكن بوسيلة أنفه .
كما انقلب المتطلع إلى سر الوجود إلى محام ثرى غارق فى المواد
الدهنية .

— إن يكن العلم كما تتصور فما نحن إلا طفيليون على هامش
الحياة .

— نحن رجال ناجحون ذوو سر دفين من الحزن المكبوت وليس
من الحكمة أن ننكأ الجروح .

— لكننا ننتمى فى الواقع إلى عصر قديم بال .
— بالله لا تنكأ الجروح .

— العلماء أقوياء بالحقيقة ونحن قوتنا مستمدة من المال
الذى يفقد شرعيته يوما بعد يوم .

— لذلك أقول لك إن الموت يمثل أملا حقيقيا فى حياة الإنسان .
ونظر إلى عينيها الخضراوين برقة وقال :

— بثينة ، هل أطمع بأن تعدينى بالآ تفرطى فى دراستك
العلمية ؟

— أظن ذلك ولو أن الشعر سيظل أجمل ما فى حياتى ..
— ليكن ، لن أجادلك فى ذلك ، ويمكن أن تكونى شاعرة وفى
ذات الوقت مهندسة مثلا .

— يبدو أنك مشغول بمستقبلى ..
— طبعاً ، لا أحب أن تنتبهى يوما فتجدى نفسك فى العصر
الحجرى على حين يعيش من حولك فى عصر العلم ..
— لكن الشعر ..

فقاطعها :

— لن أجادلک یا عزیزى ، صديقى مصطفى يجد فى العلم ديناً
وشعراً وفلسفة ، لكنى لن أجادلک ، أنا سعيد بك وفخور ..
هاهى الشمس تتهاوى للمغيب ، قرص أحمر كبير امتص
المجهول قوته وحيوته الباطشة فرنت إليه الأعين كما ترنو إلى
الماء . وتدفقت حوله كثبان السحب وضاءة الحوافى موردة الأديم
فى مهرجان الألوان .
أترید أن تعرف سرى حقاً يا مصطفى ، اسمع عندما أمضى
الفشل جريت نحو القوة التى أمنا من قبل بأنها شر يجب أن
يزول ، ولكنك تعرف سرى يا مصطفى ..

— ٥ —

فى ضوء الشمس الغاربة تبدت أنيقة وقورا . رغم أكتناز
 جسمها الطويل ، المفصح عن شبع مثير ورفاهية محنقة . ما كان
 أرق جمالها . وما زالت على قدر من الجمال بالرغم من ضخامتها
 غير العادية وانتفاخ وجنتيها . ونظرتها الخضراء الجادة لم تفقد
 كل سحرها ولكنها غريبة ، غريبة مستحدثة لم ترها عينك من
 قبل . امرأة رجل آخر . رجل الأمس الذى لم يعرف التعب أو
 الفتور . الذى نسى نفسه . ولكن ما علاقتها بهذا الرجل ؟ ،
 المريض بلا مرض ، المتجنب للدسم والشراب ، الذى يتنسم فى
 الهواء المشبع بالرطوبة نذر مخاوف لا حدود لها . والأختان
 سابقتان ، جميلة تمشى على سور الكورنيش الحجرى قابضة
 على يد بئينة التى سايرتها على الأرض ، فى الطريق ما بين
 جليم وسيدى بشر الذى يخف به الزحام درجة ما . وأعين كثيرة
 تطلعت إلى بئينة ، وشفاة تمتمت بكلمات لم يميزها ولكنه يعرفها
 على أى حال فابتسم من الداخل فحسب . وما هو إلا عامان أو
 ثلاثة ثم تصوير جدا ، وتمضى الحياة ، ولكن إلى أين ؟ . والتفت
 إلى الشمس الغاربة فى سماء صافية باهتة لم يعلق بها من
 الشفق إلا قشرة سطحية استدارت عند الأفق . قال :

— كان الأقدمون يتساءلون أين تذهب الشمس ، ولم نعد

نتساءل ..

فتطلعت زينب إلى الشمس ثوانى ثم قالت :

— بديع أن نتخلص من سؤال !

الإجابة العاقلة تخنك وكأنها تستفزك . التصرفات العاقلة تغضبك بلا سبب .. ما أجمل أن يثور البحر حتى يطارد المتسكعين على الشاطئ . وأن يرتكب السانرون على الكورنيش حماقات لا يمكن تخيلها . وأن يطير الكازينو الكبير فوق السحب ، وأن تتحطم الصور المألوفة إلى الأبد . فيخفق القلب فى الدماغ ، وتتراقص الزواحف والعصافير .

ومضت البنتان إلى سينما سان استفانو ، ثم واصل كلاهما المشى متقاربين . وإذا بها تتأبط ذراعه وتهمس متسائلة :

— عمر .. ماذا عندك ؟

ألقي نظرة باسمية على ما حوله وقال :

— ما أكثر الغرام !

— هو كذلك دائما ، ولكن ماذا عندك ؟

فقال معنأ فى التجاهل :

— بثينة لا تعرف أشياء كثيرة ، فكرت فى ذلك وأنا ..

فقاطعت نافذة الصبر :

— إنى أعرف ما على ، والبنت معدنها نفيس ، ولكنك

تهرب .. ما أشد استجابة نفسك لـ (تهرب) كأنها مفتاح سحرى يلقي إليك فى جب ..

— أهرب ؟

— أنت فاهم ما أعنيه فاعترف ..

— بأى جريمة ؟

— بأنك لم تعد أنت ..

ما أحوج الرطوبة اللزجة إلى عاصفة هوجاء .

— حقا ؟

— جسمك وحده الذى يعيش بيننا ، وأحيانا أحزن لحد الموت .

— ولكننى أتناوى بعزيمة صادقة كما لابد تشهدين .

— الحق أنى أتساءل عن السبب وراء ذلك كله ، أطوارك

جعلتنى أتساءل من جديد .

— لكننا شخصنا الحال بما فيه الكفاية .

— أجل ، ولكن ألا يضايقك شىء بالذات ؟

— أبدا ..

— يجب أن أصدقك .

— لكنك لا تصدقين تماما فيما يبدو ؟

— ظننت أن أمرا ضايقك ، فى المكتب ، فى الحكمة ، عند أحد

من الناس ، وأنت حساس وبارع فى الحزن المكتوم !

— أنا لم أقصد الطبيب إلا لأننى لم أعثر على سبب

محسوس .

— لم تحدثنى كيف بدأت الحال .

— طالما حدثتك عن ذلك .

— عن النتائج فقط ولكن كيف بدأ الحال على وجه التدقيق ؟

— وهى رغبة مستهترة فى الاعتراف تدفعك .

— من الصعب أن أحدد تاريخا أو أقرر كيف بدأ التغيير .

لكننى أذكر أننى كنت مجتمعا بأحد المتنازعين على أرض سليمان

باشا ، وقال الرجل : (أنا ممثن يا اكسلانس ، أنت محيط بتفاصيل

الموضوع بدرجة مذهلة حقيقة بإسمك الكبير ، وأن أملى فى

كسب القضية لعظيم) . فقلت له : (وأنا كذلك) فضحك بسرور

بين وإذا بى أشعر بغیظ لا تفسير له ، وقلت له (تصور أن

تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة

غدا) فهز رأسه فى استهانة وقال : (المهم أن نكسب القضية ،

ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها (فسلمت
بوجاهة منطقته ولكن ذهل رأسى بدوار مفاجيء وأختفى كل
شئ ..

رمته بنظرة داهشة وسألته :

— أكان هذا هو السبب ؟

— أبدا .. لا أعرف سببا على التحديد ، ولكنى كنت أعانى
تغيرا خفيا مستمرا ، من هنا جاء تأثرى الذى لا معنى له بكلام
الرجل الذى تردده الملايين كل ساعة دون أن يحدث أى أثر لأى
إنسان .

— طبعاً ، أنت لا تفكر فى الموت إلا كما يفكر العقلاء .

ترى كيف يفكر العقلاء فى الموت !

— هذا مسلم به من حسن الحظ .

وهى تحدجه مستطلعة :

— وهل كرهت العمل بعد ذلك ؟

— لا .. لا أستطيع أن أقطع برأى فى ذلك ، ربما قبله وربما

بعده .

— الحق أنى حزينة بدرجة لا أحب أن أحدثك عنها ..

— ولكن هل يهيك العمل لهذا الحد ؟

— أنت من يهمنى ، أنت وحدك ..

وتؤجل قضية فأخرى فثالثة ويمضى النهار وأنت مستمر فى

مقعدك ممدود الساقين تحت المكتب تدخن بلا انقطاع وتنظر إلى

السقف ببلاهة .

— تعبت من المشى .

— لكنك تمشين أضعاف ذلك .

فقالته وهى تخفض البصر :

— أن لى أن أعترف لك بدورى ، الراجع أننى أحبلى ..

فاهتز باطنه بموجة قاسية أكدت تلهفه على مفتاح الهرب
السحري وتمتم :

— لكن ..

فقالت بهدوء :

— يا عزيزى ، أمر الله فوق كل تدبير ..

ثم وهى تشد على ذراعه :

— وأنت لم تنعم بعد بولى العهد !

واستدارا راجعين ونظرة دلال تمرح فى عينيها . ومرت
النظرة طويلا حتى دق ناقوس الإنذار . وقال لنفسه إنه بشيء
من الشراب سيطرد الفتور ويمثل دور الحب كما يمثل الزوجية
والصحة .

واستيقظ مبكرا بعد نوم ساعات معدودات . وطرق أذنيه
صخب الأمواج العاصف فى سكون الصباح المعتم . وزينب
مستغرقة فى النوم ، مكتظة بالنوم والشبع تنفرج شفتاها عن
شخير خفيف متواصل ، مشعثة الشعر . وأنت متضايق كأنما
كتب عليك أن تناطح نفسك . وهذا يعنى أننى لم أعد أحبك . بعد
الحب القديم والعشرة الطويلة والذكريات المليئة بالوفاء لم أعد
أحبك . لم تبق ذرة حب واحدة . ليكون عرضا يزول بزوال المرض
ولكنى الآن لا أحبك . وهو أشقى ما ألقى من مر التجارب . وها
أنت تسمع شخيرها فلا تعطف ولا يبتسم القلب . وتنظر إليها
وتسأل ماذا جاء بها أو ماذا جاء بك ومن ذا قضى بهذا السخرة
اللعينة ؟ !

— مصطفى .. ها هى الفتاه !

— الخارجة من الكنيسة ؟

— هى هى .. انظر إلى فستانها الأسود حدادا على عمها .. أى

ملاحظة !

— ولكن الدين !

— لم أعد أكتثر لهذا العوائق ..

وقلت لها يسعدنى أنك تنازلت بقبول معرفتى . فى حديقة العائلات قدم عمر الحمزاوى المحامى نفسه فتمتعت بصوت لا يكاد يسمع (كاميليا فؤاد) . يا عزيزتى حيننا أقوى من كل شىء وسوف نتغلب على أى عائق فقالت وهى تتنهد (لا أدرى) .

ويوما ضحك مصطفى فى جو عاصف وقال :

— إنى أعرفك منذ عهد آدم ، بحاشة عن المتاعب ، زوبعة فى بيتك وزوبعة أعنف فى بيتها وأنا حائر بينكما ..

ثم ما أجمل موقفه وهو يرفع كأسه صانحا :

— مبارك عليكما ، أصبح الماضى فى خبر كان ، ولكن توضيحتك لا تقاس بتوضيحتها ، وللعقائد ملغيان حتى على الذين نبذوها ، صحتك يا زينب ، صحتك يا عمر ..

وانتفى بك جانبا وراح يقول وهو سكران تماما :

— لا تنس الأيام الأليمة ، لا تنس الحب أبدا ، تذكر أنه لم يعد لها أهل فى هذه الدنيا ، مقطوعة من شجرة ، ولا أحد لها سواك .

تزوجت قلبا نابضا لا حدود لحيويته ، وشخصية فاتنة حقا ، تلميذة مثالية للراهبات ، مهذبة بكل معنى الكلمة ، مدبرة حكيمة كأنما خلقت للتدبير والحكمة ، وقوة دافعة للعمل لا تعرف التوانى ، ونظرة ثابتة فى استثمار المال ، ارتفعت فى عهدا من غمار العدم إلى التفوق الفريد والثروة الطائلة ، وجدت فى حرارة حبها عزاء عن الفشل والشعر والجهاد الضائع ، رمز الجنس والمال والشعب والنجاح ، فماذا جرى ؟ !

وتقلبت فى الفراش على وجهها فانحسر طرف القميص عن نصفها التحتانى العارى ، فانزلق من الفراش متجها نحو الشرفة



— مصطفى .. ها هي الفتاة !

ودخل ثم أغلق الباب وراءه . طوقه هواء عاصف ورأى
الأمواج وهى تركض بجنون نحو الشاطئء فتلطم بزبدتها الفائز
أرجل الكباين ، تحت قبة باهتة انتشرت قطعان السحب فى
جنباتها وغام جو الصباح الباكر باللون الرمادى المشع منها . ولم
تدب قدم بعد فوق الأرض . ولم تنفتح نفسك لشيء . ولم ينعشك
الهواء . وحتى متى تنتظر الشفاء . أين مصطفى لأسأله عن معنى
هذه المتناقضات . عنده من الأفكار مدخر كثير رغم أنه لم يعد
يبيع اليوم إلا اللب والفشار . لماذا يجىء دور زينب بعد العمل ؟ !
وها هى موجة تعلو علوا غير عادى ، ثم تتكسر عن أطنان من
الزبد ، ثم تنداح فى تدهور مسلمة الروح . يا إلهى إنهما شيء
واحد . زينب والعمل . والداء الذى زهدنى فى العمل هو الذى
يزهدنى فى زينب . هى القوة الكامنة وراء العمل . هى رمزه .
هى المال والنجاح والثراء وأخيرا المرض . ولأنى أقتزز من كل
أولئك فأننا أقتزز من نفسى أو لأنى أقتزز من نفسى فأننا أقتزز
من كل أولئك . ولكن من لزينب غيرى ؟ . الليلة الماضية كان
الحب تجربة مريرة . ضمير ونضب فلم يبق منه سوى ارتفاع فى
الحرارة وسرعة فى النبض وزيادة فى ضغط الدم وتقلص فى
المعدة ، تتلاحق فى وحدة رهيبة . وحدة الموجة التى يمتصها رمل
الشاطئء ، فلا يتقهقر منها إلى البحر شيء . هى تترنم بأهازيج
الفرام وأنا أبكم ، هى تطارد وأنا شارد اللب ، هى تحب وأنا كاره
، هى حبلى وأنا عقيم ، هى حساسة حذرة وأنا بليد ، وقالت أنت لا
تتكلم كعادتك فقلت بل لا يسمع لى صوت ، وقلت تصور أن تكسب
القضية اليوم فتملك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا ،
قال: ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سياخذها . ورغم
الجفاء والجفاف فإن الموجة تعلو لحد الجنون ثم تتكسر عن الزبد
ثم تسلم الروح ، ويزدردك قبر النوم بلا راحة ، ويظل عقلك يتابع

هواجسه ، حتى الطبيب تفكر فى زيارته مرة أخرى ، مسلما
 بأنك تغيرت أكثر مما كنت تتصور ، فيا ترى ماذا أريد ، أجل ماذا
 أريد ، الفقه لا يهم ، والحكم لصالح موكلى لا يهم ، وإضافة مئات
 جديدة لحسابى لا يهم ، ونعمة البيت السعيد لا تهم ، وقراءة
 عناوين الصحف لا يهم ، فمارأيك فى رحلة فى الفضاء ، فى
 ركوب الضوء شكرا لسرعته الثابتة ، الشيء الوحيد الثابت فى
 هذا الكون الذى لا يعرف الثبات ، المتغير بلا توقف ، المتحرك
 فى جنون .

وها هو قد وصل أول مكتشفين للفضاء ، ببيع الجراثيم
 وبيع الأنباء الكاذبة ..

— ٦ —

فى آخر اغسطس رجعت الأسرة إلى القاهرة . وامتعض عمر
لمرأى ميدان الأزهار وهو فى سبيله إلى عمله وقال أنه لم يتغير
عما تركه وأنه ما زال معبرا كالحا للذهابين إلى أعمالهم .
واستقبل استقبالا حارا وبخاصة من مساعده الأستاذ محمود
فهى ، وسرعان ما حملت إليه ملفات القضايا المؤجلة والتي تحت
البحث . ولم يخل سبتمبر من أيام لزجة ولكن جرت به نسايم
لطيفه وظللت بواكير صباحه طلائع سحب بيضاء . وعانقه
مصطفى المنيأوى طويلا وتبادلا القبلات ، ووقفا طوال الاستقبال
وجها لوجه ، عمر بقامته المديدة ومصطفى رافع وجهه نحوه
وصلعته مائلة إلى الوراء تلمع تحت ضوء المصباح الفضى . وقال
وهو يجلس على المقعد الجلدى الكبير أمام المكتب :
— أراك فى رشاقة الغزال ، يرافو ..

وتناول سيجارة من العلبة الخشبية المطعمة بالصدف التى
تعزف أنغامها عند فتحها ، ثم أشعلها وهو يقول :
— فكرت مرات أن أزورك فى الإسكندرية ولكن واجب
الزوجية كان ينادينى إلى رأس البر فضلا عن أننى شغلت طيلة
الوقت بأعداد سلسلة جديدة للرايى ..

ونظر إلى ملفات القضايا ، ثم إلى عينى صاحبه مستجديا
كلمة مشجعة فابتسم عمر ابتسامة غامضة فالحق النظرة

بالاستجداء حتى قال عمر :

— عملت صباح اليوم ساعات متواصلة .

فتنهد مصطفى فى ارتياح غير أن الآخر تمتع :

— ولكن ..

فتساءل مصطفى فى قلق :

— ولكن !

— بالصراحة لم استرد للعمل أية رغبة ..

وساد صمت متشائم ، ونفث الدخان من فم متوتر ، ثم

تساءل :

— أكان ينبغى أن تأخذ مزيداً من الراحة ؟

— دعنا من المغالطة فالأمر أخطر من ذلك .

ثم وهو يشعل بدوره سيجارة على صدئ أنغام جديدة :

— الأمر أخطر من ذلك ، وليس العمل وحده الذى أصبحت

أكره ولكن الداء يلتهم أشياء أخرى أعز علينا من العمل ، زوجتى
على سبيل المثال .

— زينب !

فقال فيما يشبه الحياء :

— لا أدرى كيف أتكلم ولكن للأسف لم أعد أطيقها ، البيت

نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب !

— أتقول ذلك عن مكان يضم بئينة وجميلة ؟

— من حسن الحظ أنهما ليستا فى حاجة إلى ..

تجهم وجه مصطفى ورمشت عيناه المستديرتان الذابلتان

وتجلت فى نظراته المستطلعة رغبة ملحة حزينة فى حل اللغز .

— لكن مثلك لن يعجزه معرفة السر .

قال وهو يبتسم ابتسامة مريرة :

— لعله الكون — بدورانه الدائم على وتيرة واحدة — هو

المسئول الأول من ذلك .

— أعترف بأنك تبالغ فيما يتعلق بزينب على الأقل .

— هي الحقيقة السوداء .

فسأله بإشفاق :

— تتوقع عواقب عملية لذلك الموقف ؟

— إنى أعيش فى مقام السؤال ولكن بلا جواب .

— على الأقل فإنك لا بد مقتنع بأن ما بك هو حال من أحوال

النفس .

— سمه كيف شئت ، ولكن ما هو ، ماذا أريد ، ماذا على أن

أعمل ؟ !

— أنت أرشد من أن تبقى فى مقام السؤال ، سائل رغباتك

الدفينة ، راجع أحلامك ، ها هي أشياء تود الفرار منها ، ولكن

إلى أين ؟ .

— أجل ، إلى أين ؟

— عليك أن تجيب بلا تردد .

— خبرنى أنت عما يدفعك إلى العمل والزوجة ؟

بدا السؤال مضحكا على نحو ما فضحك ولكن قنامة الجو لم

تسمح للمرح بالبقاء أكثر من ثوان .

— إنى أرتبط بزوجتى بحكم الواقع والعادة ، أما عملى فهو

مصدر رزقى ، ولى جمهور أسعد به كثيرا ، مئات الرسائل

التي ألتقاها أسبوعيا تسعدنى حقا ، والحق أن تجاوب الناس

معك قيمة ثمينة ولو يكن مصدره بيع اللب والغشار !

— وأنا ليس لى جمهور وواقع وعادة ؟ !

تردد مصطفى مليا ثم قال :

— الحقيقة أن عملى جاوز بك أبعد غايات النجاح . وأن زوجك

تعبدك ، فلم تعد أمامك غاية تتطلع إليها .



ولكن للأسف لم أعد أطيعها ، البيت نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب

عمر وهو يبتسم ساخرا :
— هل أسأل الله فشلا فى العمل وخيانة فى الزوجية ؟
— لو استجاب لك لمتحك حب الحياة من جديد !
وخلا كلاهما إلى نفسه فى صمت مشحون بالتوتر منذر
بمأساة وشيكة الوقوع . وقال عمر :
— يعزىنى أحيانا أننى أكره نفسى بنفس القوة .
ثم وهو يطفىء عقب السيجارة فى النافذة بقوة حانقة :
— والحق أن عملى وزينب ونفسى ، كل أولئك شىء واحد هو
ما أود التخلص منه ..
فسأله وهو يحدثه بنظرة مريبة :
— هل هناك حلم يرواك ؟
تردد بعض الوقت ثم قال بنبرة اعترافية :
— حدث أن كتبت بثينة شعرا ..
— بثينة ؟ !
— قرأته ودار بيننا حديث فانبعثت فى نفسى أشواق غامضة
إلى الكتب القديمة التى هجرتها منذ عشرين سنة !
— أوه .. كم خطر ذلك ببالى !
— صبرك ! .. حقا لقد دبى الحركة فى الركود الأبدى ، ورحلت
أبحث عن نعمة ضائعة ، وتساءلت ترى هل يمكن أن أبدأ من
جديد ؟ .. ولكنها كانت مجرد حركة طارئة ثم ما لبثت أن تجمدت ..
— لكنك تراجعت بسرعة !
— بل عاودت القراءة ، وسطرت كلمات ، ولكن ذلك كله لم
يكن شيئا ، وذات ليلة وأنا فى السينما رأيت وجها جميلا فدبى
الحركة فى مرة أخرى ..
— أهى الحركة ما تنشد ؟
— حركة أو نشوة .. أحيت الكائن دفعة واحدة .. وأمنت

ساعتها بأن الحركة أو النشوة هي مطلبى ، لا العمل ولا الأسرة ولا الثراء .. هي هذه النشوة العجيبة الغامضة .. كأنها النصر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة .. وهي التى سحقت الشك والخمول والمرارة ..

وجه مصطفى إليه نظرة ثابتة وهو قابض على ذقنه بيده وتساءل :

— ترى أترغب فى أن تودع الحب الوداع الأخير ؟
فقال مقطبا :

— أتظننه عرضا من أعراض السن الحرجة ؟ ولكن ذلك يعالج ببساطة ويمر بسلام عندما يندفع زوج وقور على غير توقع إلى الملاحى الليلية أو يتزوج من امرأة جديدة ، وقد ترائى يوما راكضا وراء امرأة ولكن سيظل ما يدفعنى شيئا أخطر من أعراض السن الحرجة ..

ولم يتمالك مصطفى من أن يضحك ضحكة عالية ثم يسأل :
— ترى أهى نشوة عجيبة حقا أم أنها تبرير فلسفى لجريمة الزنا ؟

— لا تتهمك بى فأنت نفسك كنت يوما فريسة لازمة خطيرة ..

ابتسمت أسارير وجهه ولاحت فى عينيه نظرة منداحة فى متاهات التذكر وقال :

— أجل كنت شارعا فى كتابة مسرحية جديدة وإذا بالفن يتفتت بين يدى نشارة وترايا ولكنى سرعان ما استبدلت به فنا آخر دان له ملايين المواطنين بالسعادة ..

— أما أنا فأخطأت الطريق ، استبدلت بالفن الزائل عملا ينافسه فى البلى ، فالمحافة كالفن من أعمال العصور البائدة ، وأنا لا أحسن ما أحسنت من فن جديد ، وفاتنى مثلك أن أتعلم

العلم ، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة ؟ ! ... الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدور الذى أصابنى عندما قال لى الرجل (ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها ؟)

— هل تزعمك فكرة الموت ؟

— كلا ولكنها تحتم على أن أذوق كنه الحياة ..

— كما وجدتها فى السينما ؟ !

لم يعلم بجولاتك فى ميادين الاسكندرية وطرقاتها . وتشوفك الظامىء إلى الوجوه الواعدة بالنشوة المستعصية ، وتسكعك تحت أشجار الشلالات المترنحة باستغاثات العواطف المشبوبة . العملاق المجنون الذى ينقب عن عقله الضائع تحت الأمشاب الندية .

والمح إلى تلك المغامرات بشيء من الإسهاب ولكن فى إطار من حديث وقور يناسب العجائب الغامضة .

لم أكن فى تلك الليالى العجيبة حيوانا تحركه شهوة ، ولكننى كنت معذبا .. ويأسا ..

— ٧ —

كلما رأيتك كثيرا ازدادت شهوة
وكلما ازدادت شهوتي زاد لهيبي

— يا لها من أغنية متفجرة ! .. من المغنية ؟
— مارجريت .. نجمة (باريس الجديدة) ..

ونسمت نسمة خريفية فى الحديقة الهلالية التصميم التى
تنبتق وسطها حلبة الرقص ، وترامت الأنغام من فوق مسرح
أحمر الجدران والسقف يشع النور المكتوم من باطن جوانبه
الملتببة .

— انجليزية التكوين !

— هذا ما يدعمه صاحب الملهى ولكن حذار فمفهوم انجليزية
فى الملاهى الليلية يمكن أن تدخله أجناس شتى ..
ثمة خطوط رشيقة فى صفحة الوجه ونظرة فى العينين
الملونتين وخفة فى الحركة ، لعل من تضامنها جميعا تنبتق
النشوة المستعصية المنشودة .

— يا بختك فأنت خبير بهذا الجنات المحرمة ..

— هى ضمن عملى بصفتى المشرف على القسم الفنى بالمجلة

— برفاؤ ! .. قلت أن اسمها مارجريت ؟

فأجاب وهو يضحك :

— أو عشرون جنيتها فى الليلة بخلاف مصاريف الفتح :

وحملت إليه نسمة الخريف اللطيفة تحية من عالم مجهول لا يسكنه عقل واحد وتقوم أركانه الأربعة وراء الظلام المهدق بأشجار السرو.

— توقع من جانبى أى عجيبة .

— ولكن لا تشرب أكثر من كأس ..

— المهم أن أدعوها إلى المائدة ..

ومضى مصطفى يبحث عن النادل . وسطعت الجو نفحة زنبقة . وفى فترات الصمت بين الغناء تجلت وشوشة الأغصان . وتوثب لطرق باب الهوس ، ورأى أنماط غريبة من البشر فقال لنفسه كالمعتذر : هذا ما فعل بنا المرض ! .

وجاءت مارجريت تخطر فى ثوب سهرة مختلط الألوان لدرجة الغموض وحيث باسمه من أسنان تضيدة بارزة ، وعلى بعد متر وقف النادل شبه منح كظلها فأمن عمر قائلاً :

— شمبانيا ..

شربتها أول مرة ليلة زفافك . من أخص الأنواع كانت هدية مشتركة من مصطفى وعثمان معا . ما عسى أن يفعل المسجونون لو تفشى بينهم مرضك الغريب ؟ !

ورحب مصطفى بالمرأة ترحيب رجل لا يجهلها ولا تجهله وقال لها :

— مس مارجريت ، ، أعجب كلانا بصوتك ، وصديقى معجب بشخصك ، والظاهر أنه كلما رآك ازداد ..
وغمز بعينه ضاحكا ثم قال :

— صديقى محام كبير ، أرجو ألا تحتاجى إليه بصفته المهنية؛
فضحك ثغرها ضحكة خالية من الصوت وقالت :

— إننى أحتاج دائما لمن يدافع عني ، أليس ذلك تعريفا لا بأس به للمرأة ؟



(كلما رأيته أزداد شهوة)

فقال عمر مستعينا بلباقة خاصة لم تستعمل من سنين
طويلة !

— باستثناء من لهن جمالك أو صوتك ..
وقال مصطفى وعيناه الذابلتان ترمشان فى خبث :
— دعينى أعرفك أنه بدأ شاعرا وإن لم يصل إلى مستوى
(ازدادت شهوتى) ..

تساءلت مارجریت فى حذر وهى تتفحص عمر :
— شاعرا ؟ ! .. لكنه يبدو رصينا بكل معنى الكلمة ؟
فقال عمر :

— لذلك سرعان ما هجرت الشعر ..
— وهو يبحث عن الجمال علاجا لداء طريف ألم به فى الأيام
الآخيرة ..

وانطلقت طقة السدادة وهام فى الكئوس الحباب .
— أيعنى هذا أننى نوع من الدواء ؟
فبادرها مصطفى باسم :
— أجل ، لم لا ، من النوع الذى يؤخذ قبل النوم ..
— لا تتعجل ، الشفاء لا يجىء بالسرعة التى تتصورها ..
ودعت الموسيقى إلى الرقص فمضى بها إلى المرقص .
وعندما أحاط خاصرتها بذراعه وهام فى وجدانه شذاها حلا
الليل ورقت الرطوبة وازدهرت مجامع الأشجار المتلالئة بالأحمر
والأبيض من المصابيح .

— ليكن تعارف سعيد .
— أنت طريف بقدر ما أنت طويل ..
— لكنك لست قصيرة .
— ولكنى أخشى عينيك الحادثين ..
— ليستا كذلك إلا لأنهما يشعلان سرورا ولكنى كدت أنسى

الرقص وبقينا أنى لا أحسنه ..

— ألا ترى أنك أطول من أن تحسن الرقص !

— عندما دعانى صديقى إلى باريس الجديدة قال لى (ستجد نمطا تحبه !) .

— حقا ؟

ما أجمل الكذب فى الخريف . وصفق لهما مصطفى وهما يعودان إلى مجلسهما . وأشرق وجه عمر بفرحة ساذجة واسترد فى لحظة معبقة بسحر الليل شباب الزمن الخالى ولمست الخاتم فى يسراه متممة :

— متزوج ! .. أنتم أيها المتزوجون لا تتركون للعزاب فرصة ..
فقال مصطفى ضاحكا :

— أنكما تتقدمان بسرعة مذهلة ، أراهن على أنكما ستخرجان الليلة معا ..

— خسرت الرهان !

— لماذا يا عزيزتى مارجرىيت ؟ .. صاحبنا محام لا يعرف التأجيل ..

— اذن فعليه أن يعرفه !

— اللعنة على التقاليد الجامدة ..

ولكن عمر قال بركة :

— على أى حال سيارتى تحت أمرك لتوصلك إلى أى مكان .

واستقلت معه السيارة ليوصلها وهو من البهجة فى نهاية :

— إلى أين ؟

— بنسيون أثينا ..

— ولكن هل رأيت الهرم بعد منتصف الليل ؟

— لكنها ليلة مظلمة لا قمر فيها ..

فوجه السيارة نحو الهرم وهو يقول :

— المدينة حرمتنا من جمال الظلام ..

— لكن ..

فقال مطمئنا :

— أنا محام ، لا رياضى ولا قاطع طريق ..

والقلب لم يخرج من كهفه منذ مغانى الحدايق وقهوة
العائلات . ووجه زينب القديم لا يكاد يتذكره . وحتى صورة
الزفاف لم يلق عليها نظرة حقيقية منذ عشرة أعوام . وأنت
يامرجريت كل شيء ولا شيء . إننى أطرق بكل رجاء باب المدينة
المسحورة . وها هو شعور الهارب يتملكنى .

— فى هذا الخلاء حول الهرم وقعت حوادث تاريخية ..

فأبعدت ذراعه عن عنقها قائلة :

— لا تفكر من فضلك فى زيادة الحوادث ..

وضغط على راحتها ممثنا رغم كل شيء فقالت :

— الأفضل ألا تتقف ، ألا ترى أن الهواء شديد ؟

— لكننا فى حجرة محكمة !

ما أكتف الظلمة حولنا . تكاثفى حتى ينسانا العالم وليختلف
كل شيء عن العين الضجرة . أن للقلب وحده أن يرى . أن يرى
النشوة كنجم متوهج . وها هى تدب فى الأعماق كضياء الفجر .
فلعل نفسك أعرضت عن كل شيء ظمأ للحب . حبا فى الحب . توقا
لنشوة الخلق الأولى . اللائذة بسر أسرار الحياة . التى خرجت من
صراع مليون مليون سنة بنبتة باهرة مذهلة .

— فلنابق حتى الصباح ..

— لا تحلم ، وصلنى من فضلك .

— ألم تسمعى عن مغامرات الليل فى الهرم ؟

— حدثنى عنها غدا ..

ومال نحوها فتبادلا قبلة ، وهم بالاعراب عن رغبة أشد

ولكنها قالت برجاء :

— قلت غدا ..

ولثم خدها بخفة إعلانا عن تراجعها . وتحركت السيارة فوق

الرمال .

— لا تزعل من فضلك ..

— على أن أذعن للقوانين الأبدية .

— الأبدية ؟

— أعنى قوانين الأنوثة .

— الحق أنى متعبة .

— وأنا كذلك ، ولكنى سأعد مكانا مناسباً .

— أنتظر حتى نلتقى ..

— من الخير أن أبني العش .

— انتظر قليلا .

— شيء يحدثنى بأننا لن نفترق ..

فقالت وهى تنظر إلى الطريق :

— نعم ..

وعندما رجع إلى كورنيش النيل بجاردن سيتى كان الفجر

وشيك الطلوع . وتذكر وهو فى المصعد زجر الأب فى الأيام

الخالية. ولما أضاء نور الحجرة رأى زينب جالسة فوق كرسى

التسريحة تتطلع إليه بعين كسيرة من الضوء والحزن . وقال

بهدهوء :

— كان يجب أن تكونى نائمة ..

فقالت باسطة راحتىها فى يأس :

— هذه ثالث ليلة ..

ببرود وهو ينزع ملابسه :

— شيء لابد منه ..

تساءلت فى شىء من الحدة :
— أهو البيت ما يضايقك ؟
— كلا ولكن الضيق واقع !
— وكيف تضى الليل كله ؟
— ليس مكان محدد ، سينما قهوة ، أتجول بالسيارة ؟
— وأنا هنا فريسة للأفكار ..
— بل يجب أن تنامى ملء جفنيك ..
— وسوف أمرض فى النهاية .
— أعملى بنصيحتي ..
وهى تنفخ :
— أنت تعاملنى ببرود قاتل ..
لا مرأ فى ذلك . رجلك القديم انسلخ من جلده . ها هو يركض
لاهثا وراء نداء غامض . مخلفا وراءه حفنة من تراب . مسرات
الأمس وحتى المدينة الفاضلة .. حفنة من تراب . وحتى فتاة
النضارة الواعدة عندما دقت أجراس الكنيسة . ونظرت فى
عينيهما الخضراوين بافتتان وقلت :
— الحب يهزأ بالخاوف ..
فتمتمت وهى تتعلق بك :
— ولكن أهلى ..
— أنا أهلك ، أنا كل شىء ، وستقوم القيامة قبل أن يتخلى
عنك حبنى !
واليوم تتعلق حياتك بأغنية داعمة .
— نامى يا زينب رحمة بنفسك وبى .

ولكن امرأة أخرى التى وقفت فوق المسرح الأحمر وغنت :

كلما رأيتك كثيرا ازددت شهوة
وكلما ازددت شهوتي زاد لهيبي
وما ل نحو مصطفى متسائلا :
— أين مارجریت ؟
فغاب مصطفى دقائق ثم عاد وهو يقول :
— مفاجأة غير سارة ..
— وهي ؟
— سافرت !
— أين ؟
— خارج القطر !
— وهل يقع ذلك فجأة ؟
لوح بيده في استهانة وقال :
— لنبحث عن غيرها ..

— ٨ —

تلك الدفعة الغادرة إلى الوراء فجرت رد فعل مضاد بقوة مضاعفة . وها أنتى فى سباق حاد مع الجنون . وغايتك الأخيرة أن تنطلق غصون الشجر . وقد سألته مصطفى :

— أأنتى واثق من أن ذلك هو الطريق إلى الشفاء ؟

— ذلك راجح ، وليس لدى الآن سواء ..

وأوقفت السيارة أمام ملهى (كابرى) وقال وهما يمضيان نحوه :

— جربت كما تعلم أشياء وأشياء بلا جدوى ، وواتتنى نبضة هامة أمام مارجريت ، ومارجريت وإن تكن كذبة عابرة ولكن النبخة كانت حقيقية ..

وجلسا تحت تكعيبه جانبية خافتة الضوء يلوح الجالسون تحتها كأطياف . وقال مصطفى :

— أما مدير هذا الملهى فهو صديقك ..

وأشار إلى طرف المسرح البعيد حيث يقف رجل من النمط الكروى ، بدين مع ميل إلى القصر برميلى التكوين ، ذو وجه أبيض ملهى ينتهى أسفله بلغد غليظ منتفخ كأنه قرية ، وفى عينيه نظرة نائمة تحت جفنين ثقلين ، وفى جانب فيه انحراف شبه دائم يشى بالمرح . رأى الرجل مصطفى فانتقل إلى مجلسه بسرعة لا تناسب ثقله . وعرفه عمر ، الزبون القديم الذى كسب

له قضيتين وصافحهما الرجل بحرارة وجلس وهو يقول :

— عمر بك .. خطوة عزيزة ..

وأمر بالويسكى واستطرد مخاطبا عمر :

— لم أحلم بأن تشرفنى أبداً وان يكن العاملون هم أجدر الناس بالمرح ..

وقال مصطفى بلهجة حاسمة :

— دعنا من الرسميات يا مسيو يازبك .

نظر إليه بحذر فقال مصطفى باسم :

— هو ما تظن ، أن لك أن ترد الجميل لمحاميك ..

— عمر بك ؟

— خطر لى أن أسألك عن المرأة التى تراها لائقة به ..

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال :

— تناسبه فى ظنى فتاة مثقفة ، بنت ناس ، جميلة ..

— أقصد للحب لا للزواج !

— هو حر يا سيدى ..

— وهل لديك شيء من المثقفات الفاتنات .. ؟

فلوح بيد صغيرة ناعمة وهو يقول بفخار :

— كبرى .. كبرى !

وأسهب وهو يرمق عمر بنظرة لم يختف منها الشك نهائيا :

— كانت طالبة بمعهد التمثيل ، لم توفق فى السينما ولكنها تعبد الرقص ، تألقت فى كبرى ..

— ورده !

— دون غيرها ..

وقال مصطفى كالمعتذر :

— لم أرشحها بسبب طولها الذى يصدنى عادة عن المرأة ..

وأشار يازبك إلى المسرح بثقة والموسيقى تعزف رقصة

شرقية . وهدرت عاصفة من التصفيق تستقبل راقصة باهرة
حقا تأخذ البصر بقامة مديدة قدت على مثال راقص
مثير، وعينين واسعتين جدا تسيلان جاذبية ناعسة ، وقد أضفى
جبينها العالى على وجهها جلالا رفعها إلى طبقة أخرى . وتمتم
مصطفى :

— هائلة !

— أنت مطعم ضد الخطيئة الساحرة ..

— عندي اكتفاء ذاتى وهو عبث شائع بين الأزواج الصالحين ..
وابتسم عمر وهو يتذكر قول مصطفى من أنه لا يمكن أن
يخون زوجته لأنه لم يوفق فى الحب إلا معها . ثم غاب عن أصوات
المتحاورين وهو يتابع حركات الجسم الفارع ، وخفته التى
تتحدى طوله وجلاله ، وسرعان ما عشق ابتسامتها كما عشق
شجرة السرو . وانتبه على يد يازبك الممدودة ليصافحه مستأذنا
فى الانصراف . ولما ذهب تلقى من مصطفى نظرة جادة وسمعه
يقول محذرا :

— من النادر أن يظفر إنسان بنشوة الحب فى هذه الملهى .

فتتم عمر ساخرا :

— من جد وصل ..

— تعلم أننى كلما لقيت زينب هذه الأيام أوجعنى ضميرى ؟!

فقال باستهانة :

— ثمة آلام أعنف من ترف الضمير ..

وأشار مصطفى إلى المتاعب التى تجيء من وراء العشق

فقال عمر :

— كلما رأيت أنثى خيل إلى أننى أرى الحياة على قدمين ..

وأقبلت وردة فى حركة نشيطة ، بلا تلكؤ أو افتعال ، وهى

تحدجه بنظرة ثابتة من عينيها الواسعتين الرماديتين ، وتنشر

فى الهواء شذا خصلة من الياسمين مرشوفة فى أسورتها .
وصافحته وهى تقول بسرور :

— أخيرا وجدت رجلا لا أنظر إليه من فوق !

وجلست بين الرجلين ، ونفضت يدها فتساقط الياسمين فوق
غطاء المائدة الأحمر . وجاءت الشمبانيا وجرى الحباب . وتبدت
وردة رزينة ولكن نمت نظرتها الرمادية عن ميل مؤجل للمرح .
وبادلت مصطفى ابتسامة ألفة ليست بنت ساعتها . واستمعت
إلى الثناء المنتظر عن رقصها وجمالها ولكنها جعلت تنظر طيلة
الوقت إلى عمر باحترام . وتفحصها هو بعناية وهو يسأل الغيب
عن الأمل المنشود وراء العينين الرماديتين . أنا لم أحضر لأننى
أحب ولكننى حضرت لأحب . والبشرة صافية والشذا طيب
والعين تحرك رموشها الطويلة لتنفث تعاويذها .

— اذن فأنت المحامى الكبير ؟

— هذا لا يهم إلا إذا كان لديك مشاكل ..

— مشاكلى لا تحل بالقضايا ويا للأسف ..

— وما وجه الأسف ؟

— كان يمكن أن تحل على يديك ..

فقال مصطفى ضاحكا :

— إنه جدير بالثقة فى الحكمة وخارجها .

ورمق بحب استطلاع عنقها الطويل المطوق بعقد لؤلؤى
بسيط ، وأعلى صدرها المنبسط فى رحابة ، ونضارة الجنس التى
تنضج بها شفتاها الممتلئتان الملونتان والنظرة السائلة من
عينيهما ، فنبض وجدانه بشوق غريب غير محدود ، وتلفف غامض
كالذى يساوره فى آخر الليل . وود أن يخاطب الأعماق وأن
تخاطبه الأعماق بلا وسائط ، وأن يجد إن خانته النشوة المنشودة
بديلا فى لذعة الجنس السحرية . الذروة المتفجرة التى تمتص

رحيق الحياة واحلامها فى رشفة واحدة زائلة ، وقلق من التلهف
والترقب ودغدغة المغامرة . ومن سورة الشراب بلا حيطه .
ومن شذا الياسمين المضغوط تحت قاعدة الكأس . ومن نظرة وردة
الموحية بالقبول . ومن نجم يومض من خلال ثغرة فى التكميبة ،
وقال لها عندما أذنت السهرة بانتهاء :

— نذهب ؟

وودعهما مصطفى وذهب . وتأثرت وردة لمنظر الكاديلاك التى
وقفت كفيلا أنيقة .

— أين مسكنك ؟

— غير ممكن ، أليس لك بيت ؟

— فيه زوجة وابنتان ..

— اذن وصلنى لمسكنى كما يفعل الخياليون ..

انطلق إلى صحراء الهرم بسرعة جنونية . واستكن فى الخلاء
كليلة مارجريت وتربيع القمر يتهاوى إلى المغيب . وضمها إليه
بذراعه وتناول قبلة رشيقة كافتتاحة ، ثم تبادل قبلة طويلة
تحدوها حرقه صراع فى مستوى القمر . وهمست فى تنهدة :
— هذا حسن ..

فضمها إليه بشغف تمادى فى خلوة الصحراء وأصابعه تتخلل
شعرها المضىء بشعاع القمر . وهمس بصوت غريب لاهث :
— عندما يطلع الفجر ..

وألصق خده بخدها وراحا ينظران إلى القمر الناعس فى
مستوى البصر ويتابعان شعاعه الوانى المنطرح فوق الرمال .
سوف يسحب ذيوله قبل أن يروى القلب الظامى . ولا من قوة
تستطيع أن تستديم اللحظة الالهية . اللحظة التى وهبت الكون
يوما سرا جديدا . وهما أنتت تقف على أعتابها مستجديا . وتبسط
يدك فى ضراعة للظلمة والأفق . والغيابات التى يهبط إليها



وقال لها عندما أذنت السهرة بانتهاء : نذهب

القمر . لعل قبسا يشتعل فى صدرك كما ينبثق الفجر . وتتوارى
مخاوف الإفلاس والعدم .

— أأنت خيالى ؟

— بعيد عن ذلك لحد المرض .

وهى تضحك :

— ولست من الذين يضربون النساء ؟

— ولا الرجال ..

— هذا حسن .

وهو يضمها إليه أكثر :

— ولكنى شرعت يوما فى القتل !

— بسبب امرأة ؟

— كلا .

— لا تتحدث هكذا أمام القمر ..

— وأخيرا قررت أن أقتل نفسى ..

— بين يدى ؟

— بين يديك .

— وأمام القمر ؟

— ها هو القمر يختفى ..

عندما رجع الى مسكنه وأضاء المصباح فتحت زينب عيني

جامدتين . حياها بلا مبالاة فقالت بنبرة متوترة :

— الصبح طلع ..

فأجاب ببرود :

— فليطلع ..

وجلس فى الفراش منتفخة الجفنين ملتاعة يائسة .

— لم أسمع منك هذه اللهجة منذ تزوجتك .

وارتدى بيجامته فى صمت فهتفت :

— لم أسمع أبدا ..
فتمتم واجما :
— هكذا المرض .
— وكيف لى باحتمال الحياة ؟
— نهارى منغص فلا تنغصى ليلى ..
— البنتان يسألان ..
— أه فلنواجه الأزمة بشيء من الحكمة ..
وهى تدفن وجهها فى الجدار :
— لو كان لى مكان ..
أطفأ المصباح واستلقى مغمض العينين . لن تلبث أولى
حركات الصباح أن تسمع . ودموع ولا شك تسفح إلى جانبي .
على حين ترقد الخيانة مدفونه كحشرة . وما هى إلا لحظات حتى
يموت الوجود . مقطوعة من شجرة ، لم يعد لها أحد سواك . يا
للعجب من أين لك هذا التصميم كله ؟ . ونشوة الليلة مجنونة
كالبرق فكيف تملأ فراغ الحياة .
ويوم الجمعة سعى إلى بثينة فى الشرفة وهى تستقى أصص
الورد . طالعها بابتسامة مرتبكة فوثبت نحوه مرحبة وأولته
خدها ليلثمه . ورغم اشراقها لمح فى نظرتها المتهربة عتابا
كالعبير الوانى .
— أوحشتنى جدا !
فعض باطن شفثيه وقال :
— أسف جدا ولكننى مصمم على الشفاء ، وبحاجة إلى
سماحة تفهمنى !
وعادت إلى أصص الورد فسألها :
— هل أنت بخير ؟
— نعم ..

ثم بعد تردد قالت :

— ماما ليست كذلك .

— لها حق ، ولكن سيتغير كل شيء بالسماحة الواجبة ..

فأشارت إلى ياسمينه لا تكاد ترى وقالت بفرح :

— أول ياسمينه ، صغيرة جدا ولكن رائحتها قوية ، هل

أقطفها لك ؟

— ٩ —

ما أغرب الذهاب كل يوم إلى المكتب . مكان غريب لا معنى له فمتى توجد الشجاعة الكافية لإغلاقه . وقال له الوكيل :
— كل يوم أعتذر عن قضية ، ألم تسمع عما تعانيه المهنة ١٩ ،
وكدت أصبح بلا نشاط ..

وغيره يتحمل عبء العمل في الواقع وهو بالكاد يوجه أو يراجع . وتحقق فيه من الجدران أعين قاتمة والهواء راكد عفن .
وفي الخارج استغرقه احساس خلاق لتجهيز الشقة الجديدة بميدان سليمان باشا . وقال لوردة :

— إنى سعيد بتجهيز عشنا فإن الهرم لا يصلح للشتاء .
فتساءلت وهى ترقص بكتفيها مع أنغام الجاز تحت تكعيبه
كبرى :

— وهل يدوم اهتمامك بى حتى الشتاء ؟
فرفع كأس الشمبانيا قائلاً :
— فى صحة اهتمام دائم ..

ولح على البعد يازبك فى وقفة مراقبة فخيمة فتبادلا
ابتسامة ثم وضع راحته على يد وردة وهو يقول :
— إنى مدين له حقاً .

— هو خفيف وطيب بالقياس إلى أمثاله ، ولكنه جشع
كالمنتظر ..

— ولكننى زبون شمبانيا !
فقطبت بلطف قرن بين حاجبيها وقالت :
— من الإسراف أن تجيء كل ليلة !
فتورد وجهه بهجة وتمتم :
— يا لها من تحية بيضاء ..
وهى تحاصره بعينيها :
— ألم يشهد بذلك الهرم ؟
— بلى يا عزيزتى ، وهو من ناحيتى ليس اهتماما كما قلت
ولكنه ..

فأسكتته بضغطة على يده وقالت :
— لا تسمه ، دعه يسمى نفسه فهذا أجمل..
— أنت ظريفة لحد الجنون !
— ولا ثقة لى فى الكلام اذ أننى فى الأصل ممثلة ..
— وسيدة بكل معنى الكلمة ..
— شكرا ولكن الفن سيء السمعة عند الكثيرين ،
ولذلك انفصلت عن أهلى ، ومن حسن الحظ لا أب لى ولا أخ ..
فتفكر لحظة ثم قال :
— التمثيل بلا شك أفضل من الرقص فى كابرى ..
— لم أحبه كما يجب ، وقيل لى اننى بلا موهبة ، وعشقت
الرقص طوال الوقت ، فكانت كابرى وكان ما لايد منه ..
فقال بحرارة :
— ولكن لك قلب من ذهب !
— لم أسمع ذلك من قبل ..

وكلف أكثر من رجل بالقيام بعمل فى تجهيز الشقة الجديدة.
الأثاث والديكورات والبار والتحف . وفى أقصر مدة ممكنة
تكونت على أجمل صورة حجرات للنوم والسفرة والمدخل ،

وحجرة شرقية تحيى فى الخيال أحلام ألف ليلة . وأنفق بلا حساب وكأنه يتخلص من ورم مالى أليم . وراح يتابع عيني مصطفى النياوى وهما تجولان فى الأركان زاهلتين ، وعندما سدهما نحوه قال :

— خير من اللوم أن تندثنى عن معنى الحياة !

— الحياة !

— سائق الجدار الأصم فى كل موضع حتى يرن صوت أجوف
بشى بالكنز المدفون !

فهز مصطفى منكبيه فى تسليم قائلا :

— من الجنون ما هو جميل ..

— لم أعرف للحياة طعما كما عرفتھا فى الأيام الأخيرة ولذلك
لا أبالى شيئا ..

قال مصطفى مبتسما :

— يا زبك قلق متشائم مما يقطع بإخلاص الفتاة !

— هى إما بسيطة مخلصه وإما أنها أعظم ممثلة .

— لكنها ممثلة فاشلة !

وبهرها المنظر عند دخولها الشقة لأول مرة ، وهتفت
بإعجاب :

— ذوقك شمبانىولى حقا ، ولكنك مسرف !

وهو يقبلها قبلا متقطعة :

— أليس هو عشنا ؟ !

— ولكننى لا أريد أن أرهقك ، ويجب أن تفهمنى على

حقيقتى ..

— لولا فهمى حقيقتك ما فعلت شيئا ..

فضحكت بدلال وقالت :

— أنت المسئول وحدك عن فهمك ..

—والهرم ؟

— عندما تصرخ للسعة نار فلا يعنى هذا أن الصراخ من طبيعتنا ..

فاضطجع على ديوان وهو يقول :

— أخبرنى مصطفى أن يازبك قلق ؟

— رفضت أن أخرج مع أحد وليعض الأرض ..

— فليعض إلى ماشاء الله ..

— سوف أقصر عملى فى كابرى على الرقص ..

— خبرينى أننت مستصفاة من ماء الورد ؟

فمضت وهى تقول :

— الجو حار اليوم ، سأخذ دشا فى الحمام الجديد .

وبدل ثيابه . وشعر بأن الجلباب كان أليق بالحجرة الشرقية

من البيجاما . وقلب عينيه فى المكان الأنيق بارتياح وسعادة .

وقال إن السعادة وحدها كفيلة بشفائه ولو تساهل فى الرجيم

والشراب . وتملكته روح دعابة فتساءل بصوت مرتفع جدا :

— ماذا يفعل ماء الدش ؟

فجاء صوتها من وراء الباب :

— غاية فى سوء الأدب ..

وفتح باب الحمام فمرقت منه متلعة ببشكير ، وهرعت إلى

حجرة النوم ثم ردت الباب وراءها . وأغمض جفنيه على رضى .

فليكرر هذا العش نشوات الهرم . وليكن ما بين يديه ما ينشده .

ما داس قلوبا صديقة فى سبيله . وما علمه الاستهتار والقسوة .

والأ يزول على غير انتظار كما زالت مارجريت . وزميلك المحامى

الكبير قال لك فى مكتبك :

— تتراءى هذه الأيام أنيقا أكثر مما ينبغى لحام قدير ناجح ؟

فقلت ضاحكا :



فليكرر هذا العش نشوات الهرم .. !!

— وأقل مما ينبغي لحام سعيد ..
ونظرت إليه بريية جديرة برجل ماجن عشيق ولكنه سرعان
ما غير الحديث راجعا إلى حديث السياسة المفضل عنده فسأله :
— ماذا يفعل الناس فى هذه الأيام ؟
فأجبت دون مبالاة بالسياسة :
— أنهم يبحثون بجنون عن النشوة .
ولم يفهم . إنه زير نساء ولست كذلك . لست ماجنا ولا
عابثا . ولكن منذا يفرق بين قاتل وعابد . أو يصدق أنك تقيم
للعبدة معبدا ؟
وفتحت باب الحجرة نصف فتحة ثم أبرزت رأسها قائلة :
— ربما طال وقت الزينة وأنا فى حاجة ماسة إلى قبلة ؟
فهنا إليها ، وأخذ خديها بين راحتيه حتى برزت شفاتها
مضمومتين فقبلهما قبلة طويلة وهو يشم بتلذذ رائحة الصابون
الزكية وشذا البشرة الأدمية . وهمس :
— هل أدخل ؟
فدفعته ضاحكة وهى تقول :
— لا تكن بدائيا ..
عاد إلى ضجعته فوق الديوان . ورأى أمامه الدولار الملون
الجامع للراديو والتلفزيون بين جناحيه فقام وأدارهما معا فى
فرحة طفولية فتلاقت فى أذنيه ضجة متداخلة مناقشة عن جرائم
الأحداث مع ما يطلبه المستمعون ، ثم أسكتتهما دون أن يتخلص
من عبثه الطفولى فمضى إلى الباب المغلق ونقر عليه فجاءه
الصوت :
— هه !
— احبك .
— من كل قلبى .

- ما أعز أمنية فى حياتك ؟
— الحب .
فتماذى فى عبثه البرىء متسائلا :
— هل فكرت يوما فى معنى الحياة ؟
— لا معنى لها إلا الحب .
— وهل فرغت من زينتك ؟
— لم يبق إلا القليل .
فاستطال تماديه وهو يسأل :
— عزيزتى ألا يقلقك أن نعبث والعالم من حولنا يجد ؟
وهى تضحك عاليا :
— ألا ترى أننا نجد والعالم من حولنا يعبث ؟
— من أين لك هذه البلاغة ؟
— عما قليل ستعرف سرها ...
عندما يطوى الليل ستائره ويدركنا الفجر بلا رحمة فلا
مفر من الرجوع إلى الحجرة الكئيبة ، حيث لا نغمة ولا نشوة .
ستطاردك مینان حزينتان و جدار صفوى . ثم ترن أوتار الحكمة
الكالحة بأعثة كلمات تقريع جامدة خشنة كغبار الخماسين . ليكن
ردك حازما قاصما كنفورك :
— لا تزعجینى .
ولتصم أذنيك عن أى كلام .
— قلت لا تزعجینى هكذا أكون ، اليوم وغدا وكل يوم .
— انزلى على حكم الأمر الواقع ، وأبعدى البنت عن مجال
نزاعنا .
— لا جدوى من العناد وسوف أفعل ما يحلو لى .
ولا تتراجع اذا تساءلت عن علة تغيرك .
— ظننى كما تشائين ، الملل كره إلى الاعتذار .

وفتح الباب وخرجت وردة كأبهى ما يكون .
— كيف ترانى يا عزيز القلب ؟
رنا إليها طويلا فى انبهار ، ثم غمغم :
— دعينى أكوّن جملة لم يسبق ذكرها على لسان .

— ١٠ —

جلست قبالة في الشرفة ، جلسة يوم العطلة ، فقال لنفسه
بعد ارتياح : حقا لم أرها منذ أسبوع كامل . وألقت الشمس على
حجرها وساقها فيضا من شعاعها الذي يبرق لآلاء فوق سطح
النيل . ومن عجب أنه لم يعد يذكر كثيرا عن طفولتها ، وهل
كانت عفريتة جميلة ، ولكنها اليوم فتاة جميلة ، ذكية مجتهدة
وشاعرة ، ومثال للأناقة . وأما فكرة أنها تكرر صورة قديمة لأماها
فلتطردا عن ذهنك .

— أنت جادة أكثر مما ينبغي لشاعرة !

وصاحت جميلة وهي تقف على عتبة الشرفة متحدية :
— شاعرة !

هددها بأصبع ثم عاد إلى بثينة التي توجس وراء مظهرها
الجاد زعلا أو احتجاجا . .

— وأنت أنحف مما يجوز كما أن أختك أسمن مما يجوز ، ماذا
تأكلين وماذا تأكل ؟

وصاحت جميلة :

— تأكل !

وجاءت أم محمد فحملتها رغم المقاومة وذهبت . وقالت
بثينة :

— ماما مريضة !

— ماما بخير ، حدثيني عن نفسك .
— لاشيء هام ولكن ماما ليست بخير .
— لن تكف عنك المطاردة فى هذا البيت . وأنت ألا يشغلك
حقا إلا الشعر والرياضة والكيمياء ؟ وهل الله وحده هو
معشوقك ؟!

— ألا يعجبك الحديث عن ماما ؟
فقال مقطبا :
— لم تعد تفهمنى فى مرضى ..
واللقت عيناها لحظات فحول بصره إلى النيل منهزما .
— ولكن الدكتور يا بابا ..
فقاطعها برقة لتخفى ضيقا :
— الحق أننى الطبيب ولا أحد سواى .
— معذرة فقد عودتنى على الصراحة معك .
— بلا شك .
وإذا بصوت رفيع حاد يصرخ : — شك
فقبض على ذراع الصغيرة حتى جاءت أم محمد فذهبت بها
— هل أصبحنا نسبب لك الكدر ؟
— لا سمح الله ، ولكن الإنسان يهاجر إذا ضاق بنفسه .
— إنها تبكى كثيرا وهذا مؤلم جدا .
— عليك أن تقنعىها بخطئها ..
فقالت وهى تعبت بأسورة ساعتها الذهبية :
— لكن معاملتك لها تغيرت ، وقلت لها بخشونة انك ستفعل
ما يحلو لك !
— أقالت ذلك أيضا ؟
— أنا الوحيدة التى يمكن أن تشكو لها !
انقبض قلبه وتتم :
—

— لكنه الغضب كما تعلمين .
— هـى على أى حال مستعدة لأن تخفف عنك ضيقك بما فى وسعها ..
— ليس فى وسعها شىء !
وترددت لحظات ثم قالت :
— ألا تقدر أنها ربما تظن ..؟
— أليس من الأفضل أن تطلعينى على آخر أشعارك ؟
— لا جديد .
— لكن محشوقك لا يكف عن الإلهام ..
— ربما تظن أن .. كما تعلم ؟
— أهى تصارحك حتى بالخاوف السخيفة ؟
— إنى حزينة حقا .
فقال وهو يشعل سيجارة :
— أوهام سخيفة .
فقالت بلهفة :
— إنى أصدقك ، أنت مثال أبدى للصدق ، أهى مجرد أوهام ؟
ها أنت محاصر فى ركن صلد .
— أمك أزعجتك أكثر مما يجوز .
— قل إنها أوهام ..
فرمقها بعتاب ولكنها تجنبته ناظرة إلى النيل وهى تسأل :
— ليس هناك امرأة ؟
واذا بالصوت الرفيع يعلو :
— امرأة !
رفعها هذا المرة إلى حجره كأنما ليحتمى بها وراح يدايعها
بشء من العنف الأبوى الذى يناسب شقاوتها ولكن بثينة قالت
بلهفة :

— أريد جوابا يا بابا .

— ماذا تظنين بوالدك ؟

— إننى أصدقك فتكلم .. وحياتى عندك تكلم ..

وفى يأس شديد قال :

— لا شيء .

تهلل وجهها فأربد قلبه . والتمعت عيناها بفرحه ظافرة
فتجهمت الدنيا . وتجلى الخريف فى الجو . وانتشر فى أعالى
الشجر اصفرار باهت . وعكست قوافل من سحب بيضاء
نصاعتها فوق الماء الرصاصى . وتضمن الفراغ الخابى أنغاما
صامتة من الرقة والحزن ، وأسئلة مضمينة مسيرة الجواب .
وتضخمت كذوبته حتى أنذرت بالعدم .

ومن شدة ضيقه زار مصطفى بمكتبه بالمجلة . وتجدد النقاش
بلا نتيجة وقال له مصطفى :

— لقد جاريته وساعدتك على أمل أن يتبين لك عبث
المحاولة ولكنك غرقت ..
فهتف متنهدا :

— ألا تعلم أنى أعيش الفن الذى تلهفت يوما على خلقه ؟
وأكمل مصطفى صفحة بين يديه ثم بعث بها إلى المطبعة ،
وقال :

— كثيرا ما خيل إلى أنك تعاني أزمة حادة لفن مكبوت !
فرفض ذلك بهزة من رأسه وقال :
— لا ، ليس الفن ، ربما هو ما نلجأ بسببه أحيانا إلى الفن .
فتمهل مصطفى قليلا ثم قال :

— لعله لو كنا من العلماء الذين ينفقون عشرين عاما من
العمر فى البحث عن معادلة لما عرفت التعاسة إلى نفوسنا
سبيلا...



ولكنها تجنبتة ناظرة إلى النيل وهي تسأل :
ليس هناك امرأة ؟

فقال وهو يهز رأسه أسفا :

— لعل سر شقائى أننى أبحث عن معادلة بلا تأهيل علمى ..

مصطفى وهو يضحك :

— ولأنه لا يوجد وحى فى عصرنا فلم يبق لأمثالك إلا

التسول!

— التسول ! فى الليل والنهار .. فى القراءة المجذبة والشعر

العقيم .. فى الصلوات الوثنية فى باحات الملائى الليلية . فى تحريك القلب الأصم باشواك المغامرات الجهنمية .

وتحدث مصطفى عن زينب فقال إنها تعاني مرارة الهجر ومتاعب الحمل معا . أجل كم أنها متوقعة ولكن ما لقلبه قد تحجر ، وهو مستعد أن يوجد لها بكل غال تحت شرط أن تحرره من استغلال حب ميت .

— أجل .. هناك امرأة ما دمت تصرين عل أن تعرفى ..

والكراهية نبتت فى مستنقع أسن مكتظ بالحكم التقليدية والتدبير المنزلى . ولا عزاء فيما بلغناه من ثراء ونجاح فالعفن قد دفن كل شىء . وحبست الروح فى برطمان قذر كأنها جنين مجهض . واختنق القلب بالبلادة والرواسب الدسمة . وذبلت أزهار الحياة فجفت وتهاوت على الأرض ثم انتهت إلى مستقرها الأخير فى مستودعات الزبالة .

— أبكى ما شاء لك البكاء ولكن عليك أن تسلمى بالأمر

الواقع .

فقد قتل الضجر كل شىء . وانهارت قوائم الوجود بفعل بضعة أسئلة . وقلت له تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا فقال لى ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سياخذها ؟

وكان فى مكتبه يراجع مذكرة فى فتور عندما دخل الساعى

ليستأن للمسيو يازبك ، ودخل الرجل يتقدمه كرشه فسلم
وانحنى ثم جلس وهو يقول :

— مررت بميدان الأزهار فقلت أزور وأحيى ..
فقال عمر بسخرية باسمه :

— قل انك جئت من أقصى الأرض من أجل وردة !
— عزيزى الأفوكاتو العظيم ، أنت تعلم أن حديقتي مملأى
بالورود ..

— حسن ، واذن لا تتكلم عن وردة كلمة واحدة ..
فابتسم ابتسامة عريضة وقال :
— من الحق أن أتصور أنه يمكن أن أغلبك ، ولنتقدم فى
أقصر طريق بين نقطتين ..

— أفندم ؟

ثقلت جفونه وقال جادا :

— وردة لم تعد تقوم بواجباتها ..
— أعلوها

واجب غير الرقص ؟

— سيدى ، أنت لم تشرف كابرى تلك الليلة لترقص أو
لتشاهد الرقص ..
— واذن ؟

— قلت أشكو إلى الرجل الكبير ..

فقطب عمر ولم ينبس ، فقال الرجل :

— الشغل شغل يا عزيزى الكبير وأنا أحب ..
فقاطعه ببرود :

— افعل ماتراه فى صالك يا مسيو يازبك ..

— انى أتخاشى اغضايك ..

— لكنى أنتحل لك العذر مقدما ..

فأحنى الرجل رأسه ممتنا وقال :
- وأعدك منذ الآن أن أعيدها إلى العمل إذا استغنيت عنها
مستقبلا ..
- لن يجيء هذا اليوم يا مسيو يازبك ..
- أصدق تمنيات السعادة يا شيرى !
وهم بالقيام ولكنه استمهل بدافع عبثى مما يلم به دون
تمهيد ، وسأله :
- خبرنى يا مسيو يازبك ماذا تعنى لك الحياة ؟
رفع الرجل حاجبيه الخفيفين دهشة ، ولما قرأ الجد فى وجه
صاحبه قال :
- الحياة هى الحياة ..
- أأنت سعيد ؟
- الحمد لله ، أحيانا يصاب الموسم بالركود ، أو يصيب
الملهى غرام مفاجيء كغرام وردة ، ولكن القافلة تسير ..
- لكنك تعيش حياتك ثم يأخذها الله ؟
- هذا مفهوم طبعا ، ولكن بيتى جميل ، والمدام عال ، ولى
ابن وحيد يتعلم الكيمياء فى سويسرا وسيعيش هناك ..
وهو يبتسم :
- هل تؤمن بالله ؟
فأجاب الرجل بدهشة :
- طبعا ، ياله من تحقيق طريف !
- اذن فقل لى ما هو الله ؟
ضحك الرجل عاليا . وأزالت الأسئلة الغريبة الكلفة فسأل
برجاء :
- هل يطول غرامك بوردة ؟
- طبعا .

— ألا يمكن ..

فقطعه قائلا :

— أعدك إذا أخبرتنى ما هو الله أن أتركها لك فى الحال !

نهض الرجل ، وانحنى مرة أخرى ، وقال وهو ينصرف :

ستجدنى دائما فى خدمتك .

— ١١ —

قبلها بشغف وامتنان وهو يقول :
— إنها لتضحية جسيمة أن تهجرى عملك !
فقال وعيناها الواسعتان تلمعان بأنداء دموع :
— من أجلك .
وعبرت الحجرة الشرقية بأنفاس الحب . وقال أنه ما كان
يظن أنه سيحبها بكل هذه القوة .
وأخرجت من جيب الروب علبة كحلية وأهدتها إليه فى
حياء .. هدية أزوار ذهبية للقميص .
ندت عنه آهة فرح كأنه سيستعمل الذهب لأول مرة .
— حبيبتى ..
— الأزوار كما ترى مكون من قلبين ..
— ذلك أن قلبك من ذهب كما قلت لك ..
وراحت ترجل شعره الأسود الغزير بأصابعها ، ثم سألته :
— لم أتيت اليوم بملابسك وبذلك ؟
فتجهم وجهه وقال بنبرة زایلها تطريب الغرام وحنانه :
— هجرت بيتى نهائيا ..
فهمت بدهشة :
— لا ..
— هو الحل الوحيد .



— هجرت بيتى نهايا .

فہتفت بدمشہ : لا !!

— قلت لك أننى لا أحب أن أسبب لك المتاعب .
— لندع هذا الحديث جانبا ..

تكهرب جو الحجرة فى سكون الفجر . رمته بنظرة يائسة
وغاضبة من عينين دمعت أسفلهما لطحختان زرقاوان . ما أبشع
شراسة الغضب فى وجه ظل أليفا طيلة عشرين عاما .
— ألم أنصحك بأن تروضى نفسك على قبول الواقع ؟
— بل قل إنك تلتطخ كرامتك مع امرأة ساقطة !
— سيوقظ صوتك النائمين ..
— انظر إلى الأحمر فى منديلك ، ما أقذر هذا !
وأعماه الغضب فصاح :
— فليكن ، وماذا بعد ؟ !
— بنتك فى سن الزواج !
— إنى أدفع عن نفسى الموت ..
— ألا تخجل ؟ ! ، إنى خجلة من أجلك .
فصاح بغضب أشد :
— قبول الموت أدمى للخجل ..
وسقط رأسها مع دموعها وهى تقول بصوت مختنق :
— عشرون عاما دون أن أعرف قذارتك ..
فقال بجنون :
— اذن فلتكن النهاية ..
— ساهيم على وجهى .
— بل تبقيين فهذا هو بيتك وسأذهب أنا .
وارتميت على مقعد بحجرة الجلوس مغمض العينين من الألم .
ورفعت رأسك على حس فإذا بثينة واقفة أمامك ، ناعسة العينين

من أثر النوم ، شاحبة الوجه . ترامقا فى صمت فى جو مشحون
بالبغى والشعور بالإثم . وتذكرت الكذبة السوداء . وعصر ك
خزى لم تشعر به من قبل .

— أسف يا بثينة على إزعاجك .

وضع فى ضمة شفيتها الكبرياء الجريح .

— لا فائدة من الكلام .

نأت بالأرض التى تحملها فوق عاتقها ولم تنبس .

— ستظل أمك فى البيت محاطة بكل رعاية ..

ودعا الله فى سره ألا تبكى . وتمتم :

— إنه بلاء ، ولكنى أدفع عن نفسى ما هو أشد .

ونظرت فى عينيه بنظرة حزينة جدا وقالت :

— ولكنك قلت لى (لا) ..

وهو يتنهد محترقا :

— كان الصدق غير لائق .

— لماذا ؟

فقال برجاء :

— فلنبق على ما بيننا من حب .

وذهبت . ليس من الممكن أن تتلقى نظراتها مرة أخرى قبل

أن تصفح .

وقالت وردة :

— سوف تندم على قرارك .

— كلا ، لم أعد أطيق الحياة الكاذبة .

وفكرت فى قلق ثم تساءلت :

— كم أخشى أن أفشل فى إسعادك .

— لكننى سعيد بالفعل .

وأسلم نفسه للسعادة . ولم يسمح لأى فكرة معادية بأن تكدر

صفاءه . وتوقع من بادية الأمر معارضة من ناحية مصطفى
ولكنه شككه بلا تردد. وقال له :

— إننى سعيد فهل تكره ذلك ؟ ! حتى شيء من الشعر يتحرك
فى أعماقى ..

وحتى العمل انفتحت له نفسه بعض الشيء وإن ظل على
تحفظه فى قبول القضايا . وفى أوقات الراحة بين العمل كان
يجدد نشاطه بمحادثتها عن طريق التليفون . ثم يهرع إلى عشه
ليجده فى صورة باهرة ، وتطالعه صاحبتة بوجه يتألق
بالسعادة. وكانا يفضلان الحياة فى الحجرة الشرقية ، وفى بعض
الأحيان ينطلقان إلى أطراف القاهرة ، إلى ملتقيات العشاق ، أو
يقومان برحلات ليلية إلى الفيوم أو استراحة الطريق
الصحراوى . ولما علمت بماضيه الشعرى الذى بشر ببعث جديد
عملت على إيقاظه بمحفوظاتها المترعة . وكانت تحفظ تمثيلات
شوقى منذ عهد دراستها بالمعهد كما حفظت الكثير من أشعار
الغزل . وقال لها بإعجاب :

— ما أجمل حبك للشعر !

فحثته على تجديد شبابه الشعرى ولكنه قال بحذر :

— الشعر جميل ، ولكن أجمل منه أن نعيشه !

وقالت له يوما :

— أنت لم تسألنى عن ماضى !

فقال وهو يقبلها :

— عندما تحل بنا بركة النشوة يملأنا اليقين فلا نسأل عن

شيء .

ولكنها كانت راغبة فى الحديث عن ماضيها فقالت :

— كان أبى مدرس لغة انجليزية ، من المدرسين الذين لا

ينساهم تلاميذهم ، ولو كان على قيد الحياة يوم أعلنت رغبتى

فى دخول معهد التمثيل لشجعنى وباركنى ، ولكن أمى سيدة
متدينة جدا وضيقة العقل جدا فدخلت المعهد على رغمها ، ولما
قررت أن أحترف الرقص ثارت على ، وثار معها أخوالى وعم
عجوز ، وانتهى النزاع بالقطيعة ، فهجرت أهلى .

— وكيف عشت وحدك ؟

— قاسمت زميلة من ممثلات المسرح بيتها .

وراح يداعب يدها البضة بإعجاب ، ثم سألها :

— أكننت تحبين الرقص من أول الأمر ؟

— كنت أحبه ولكنى حلمت بأن أكون ممثلة ، وبذلت جهدى

ولكنى فشلت فكننت بهوايتى الأولى ..

وتجهم وجهه وهويسأل :

— وهل استبد بك يازيك ؟

— الحق أنه ألطف من غيره ، ولم أكن أجهل ما يعنيه العمل

فى ملهى ليلى !

ثم بحرارة صابدة :

— ولكنك حبى الأول والأخير ..

فضمها إليه ضمة امتنان ، وسأل :

— ولماذا لم ترجعى إلى أمك عقب فشلك فى التمثيل ؟

— كان قد فات الأوان ، ولى كبرىائى ، وقد زاد من حدته

الفشل !

الفشل ! . اللعنة التى تدفن ولا تموت . ما أفلح إلا يستمع

لغنائك أحد ، ويموت حبك لسر الوجود . ويمسى الوجود بلا سر .

وتبعث الحشرات يوما لتخرب كل شيء .

وشهد مكتبه زيارات خطيرة من خاله وأخته الوحيدة .

ضرعا إليه ألا يتزوج من (الراقصة) . وقال له خاله حسين كرم

المستشار :

— استمرار هذه العلاقة سيحول دون اختيارك مستشارا
يوما ما .

فقال له بشيء من الجفاف :

— ما فكرت فى ذلك ولا أردته ..

دافع عن سعادته بكل قواه ، وبقوة اليأس الذى خنقه .

وتبدى كطفل برىء دائم المرح ، حتى قال له مصطفى ضاحكا:

— خبرنا الآن عن معنى الحياة .

فضحك عمر ماليا ثم قال :

— هذا السؤال لا يلح علينا إلا حينما يفرغ قلبنا ..

الرنين الأجوف لا يصدر عن إناء ممتلئ . ولذلك فالنشوة هى

اليقين . ولذلك فإن أسمى الأخير أن وجود الحب بنشوة دائمة .

وقال مصطفى :

— أحيانا أرثى لك وأحيانا أغبطك !

فلمعت عيناه فى انتصار فاستطرد مصطفى :

— إنى أنطلق فى حياتى المزدحمة كالصاروخ ولكنى ربما

تذكرت فى يوم من أيام الخمسين أنى أطوى جوانحى على فشل

قديم ، وربما اعترضنى سؤال شيطانى عن معنى وجودى ولكنى

سرعان ما أدفنه فى الأعماق كذكرى مخزية .

وسفعت رياح شتوية نوافذ المكتب وانقلب الأصيل ليلا ،

فاستطرد الذى يتحدى البرد بصلغته :

— لماذا نسأل ؟ ، الحكاية أن العقيدة كانت تعطينا معنى

متكاملا ، وأننا نحاول أن نملأ الفراغ تحقيقا لقانون طبيعى ،

وأمس ثرت على لحظة ضعف ألمت بى وقلت إن تعليقاتى الفنية

لها معنى ، وبرنامج الماضى والحاضر بالراديو له معنى ،

وتمثلياتى فى التلفزيون لها معنى ، ولا يحق لى أن أسأل بعد

ذلك .

— يا لك من فارس !

وتمادى فى تعداد انتصاراته قائلا :

— وأمس ثبت لى أننى قادر على حب زوجتى لدرجة لا تصدق حتى أنى اقترحت على رئيس التحرير أن أسجل الليلة فى (خبر الأسبوع الفنى) أما ابنى عمر الذى سميت له للأسف باسمك فمراهق شكس ، واهتمامه بالكرة يماثل اهتمامنا القديم بقلب العالم رأسا على عقب ..

قلب العالم رأسا على عقب . انتهى فى السجن . وسوف يخرج يوما ما . بعد بضعة أعوام . وسوف تتلاقى الأعين فى دهشة مزعجة . فليكتث بذلك غيرى .

وقال مصطفى بلهجة أكثر جدية :

— اقترح على رئيس التحرير أن ألقى محاضرات عن التوعية الاشتراكية على موظفى وعمال الدار ..

— بأى صفة ؟

— بصفتى اشتراكيا عتيقا !

— وقبلت طبعا ؟

— طبعا ، ولكنى أتساءل : ما دامت الدولة تحضن المبادئ التقدمية وتطبقها أليس من الحكمة أن نهتم بأعمالنا الخاصة ؟

— كأن تبيع اللب والفشار وتتساءل عن معنى الوجود !

— أو أعشق لأبلغ اليقين !

— أو تسقط مريضا بلا علة !

وراحا يدخنان فى صمت . وإذا بعمر يسأله :

— كيف حالهم ؟

ابتسم مصطفى وقال :

— زينب عال ! استردت رصانتها ولكنها مرهقة بالحمل ،

وثمة خبر يجب أن تعلمه !

تجلى اهتمام فى عينيه فقال الآخر :
— انها تفكر فى أن تبحث عن عمل بعد الولادة ..
لوح بيده متمعضا فاستطرد مصطفى:
— مترجمة مثلا ، أخشى أن تصمم يوما على هجر البيت ..
— لكنه بيتها ..
فحدجه بنظرة ساخرة وقال :
— بثينة مستغرقة فى دروسها ، وجميلة توشك أن تنسك !
فغض بصره فى ارتباك فعاد مصطفى يقول :
— أنا أقوم بالواجب ولا أأتوانى عن نقدك مر النقد !
فقال عمر ضاحكا :
— منافق عتيق ..
— أما زوجتى فلا تكف عن شن الحرب عليك .
— طبعا .. طبعا ..
— وكثيرا ما أذافع عنك عندما نكون منفردين وأرجع سلوكك
إلى (مرض نفسى خطير) ثم أؤكد لها فى نفس الوقت أنه مرض
غير معدى ..

— ١٢ —

ليس كمثـل وردة فى حبها أحد . هى مغرمة بـرجلها لحد الجنون ، مغرمة بعـشها لحد العبادة وهى متفرغة لـحبها ، تقوم بجميع واجباتها بلا معين . وكان عمر ينظر إلى الجدران والآثاث واللوحات ، ويشم الورد فى الأصيص ، ويستمع إلى أنغام الحجرة الشرقية ، ثم يقول إنه آدم فى الجنة . وهى لا تطالبه بشيء وربما دفعها لابتـياع مايلزمها من ثياب وحوائج . وزاد وزنها فعـالجه بالمشى وبشـيء من الرجيم وحرصت ما استطاعت على ألا يفرط فى طعام أو شراب . وشعر تماما بأنها تذوب فى شخصه وتتفانى فى حبه وتتعلق به كأمل أخير . وفى ليالى الشتاء الطويلة انطويا على نفسيهما . وطال بهما السهر فى الحجرة الشرقية ، يفرقان فى أحاديث لا نهاية لها ، عن الماضى والحاضر والمستقبل ، والواقع والخيال ، والحقيقة والحلم ، تتخللها القبلات والملاطفات ، ولولا الشرفة المخلقة المطلة على الميدان ما روعتهما بين حين وآخر عواصف الشتاء أو انهلال المطر . واستنفدت ليالى الشتاء الأحاديث . وشملهما الصمت أوقاتا ولكنه صمت مضمـر للرضى والارتياح والطمأنينة المتبادلة . وطافت به مرة خيالات فابتسم ، ومرة وجـم . وتخيل تصادم سيارتين عند مفترق الطريق وتطاير رجل وقور فى العمر فجزع . وهمس الصوت الحنون :

— أين أنت ؟
فأجاب فى شبه حياء :
— لا شىء .
فطوقت عنقه بذراعها وقالت :
— أراهن أنه شىء هام !
هز رأسه نفيا فسكتت برهة ثم بفطنة قالت :
— لا أدرى لم لا تزورك بثينة وجميلة فى مكتبك ؟
وكان يفكر فى العنكبوت الذى يبنى بيتا غاية فى الغرابة
ليصطاد ذبابة ، ولكنه قال :
— بثينة لا تريد .
— هل بلغت رغبتك ؟
— حملها إليها مصطفى .
— لم تحدثنى عن ذلك ؟
— ليس للأمر أهمية .
— بل يهمنى كل ما يخصك .
ومنعا للخيالات الغريبة لعب التلفزيون دوره فجعلنا ينتقلان
بين القنوات الثلاث . وسأل مصطفى عنهما بالتليفون مرة
فدعته إلى العشاء . ووجدت فيه رجلا يؤلف دون عشاء فأغرته
بتكرار الزيارة . وسأله مصطفى عن الشعر ومدى ما بلغه من
خياله فأجابت وردة :
— إنه يكتب شعرا .
ولكن عمراحتج قائلا بازدياد :
— ما هو إلا إجهاض وقد مزقته ..
فقال مصطفى مواسيا :
— السعادة أهم من الشعر ..
وأوشك أن يسأله (ولكن ما هى السعادة ؟) ولكنه أشفق من

العينين الرماديتين اللتين ترمقانه باهتمام . وبفضل التلفزيون والراديو ومصطفى تخففا من الحديث المعاد . وقال لنفسه (يا إلهى !) . وتخيل أنه استحوذ على قوة سحرية وراح يستعملها فى تسلية الناس . كأن يخفى فى غمضة عين دار الأوبرا حتى يتجمع الناس ذاهلين ، ثم يعيدها فى غمضة عين حتى يتصايح الناس من الدهول . ما أحوج الناس إلى جرعات مماثلة من السحر . وقال لنفسه مرة أخرى (يا إلهى !) . وحدجها بنظرة ناعمة فسألته :

— لماذا لا تدعو أصدقاءك للسمر واللهو ؟

فقال بهدوء :

— لا صديق لى إلا مصطفى !

وشعر بأنها تدارى إنكارا موضحا :

— لا أعتبر الزملاء والمعارف من الأصدقاء .

فعملت من ناحيتها على أن يكثر من الخروج ، وأن يمضي السهرات ما بين السينما والمسرح ، بل والملاهى الليلية .

— هذا أفضل من البقاء وحدنا فى البيت .

فوافق برأسه ولكنها رنت إليه بعتاب قاشلة :

— أول مرة يخفق ذكاؤك فى مجاملتى !

فقال بعد فوات الفرصة :

— قصدت الثناء على مشروعاتك اللطيفة ..

— أما أنا فلا أمل معاشرتك وحدك إلى الأبد .

— ولا أنا صديقنى ..

وسخط على غفلته . وقال لنفسه للمرة الثالثة (يا إلهى) .

أما مصطفى فلم يخف منه إعجابه بسعادته . وقال له يوما

وهو يجالسه فى مكتبه :

— حدثنى عن حيك فإنه سيحملنى فى النهاية على اعتناق

آراء جديدة فى الحياة ..

وقرأ فى عينيه نظرة ناقدة لا تخلو من خبث فسأله :

— هل هنت على بثينة لهذا الحد ؟

— أنت تعلم أنها مثالية وذات كبرياء ولكنها فى الأعماق

تعبدك !

— ألم أوحشها الغادرة ؟

— سترارك يوما ما ، ولكن بالله حدثنى عن حبك ..

فقال مقطبا فى تحد :

— كأقوى ما يكون !

— تصريح سياسى ؟ !

— أنت منافق ولا حق لك فى الاطلاع على أسرار القلوب .

ضحك مصطفى طويلا وقال :

— دعنى أصفه لك كما أتخيله ، الكلام اللذيذ نضب ،

المداعبات اختصرت ، والشراب يكثر بلا حيلة ..

— مت بغيبك ..

يا للرب . وردة محبة صادقة . وجميلة . يا إلهى . ما العمل

لحماية النشوة من النعاس . أو لبعث الشعرا الذى مات . يا أصيل

الشتاء المعتم .

وسهرا ليلة فى ملهى باريس الجديدة . دون أى توقع ظهرت

فوق المسرح مارجرى . تلقى ضربة من الماضى بلا حذر . ولكنه

ضبط أعصابه بقوة وغنت :

كلما رأيتك كثيرا ازدادت شهوة

وكلما ازدادت شهوتى زاد لهيبى

وهمست وردة :

— يا لها من حكمة ..

ولكن نظرة واحدة تتبادل بينك وبين مارجرى خليفة بأن

تقرأ ورده فيها كتابا . وأعلن عن رغبته في الذهاب فذهبا .
وتسكعا بالسيارة في ليل بارد وطرقات مقفرة . لا داعى للانفعال
ولا معنى له . لكن عودتها المباغتة شجعت الملل المتردد على
الاستفحال . وستقف على حافة الهاوية مرة أخرى . وعند اليأس
تنطلق القوى المدمرة ! .

ومن مكتبه قال لوردة بالتليفون إنه مدعول حفل تكريم زميل
اختير مستشارا . وذهب إلى باريس الجديدة . ومضت مارجريت
تغنى وهو ينتظر .. ماذا جاء بى ؟ وبهذه السرعة ؟ . وعم
ابحث ؟ . هل انتهت ورده حقا ؟

وجاءت مارجريت مرفوعة الرأس وجاءت الشمبانيا . وقالت
مشرقة الوجه :

— كان من المؤسف أن أسافر فجأة ..

— فجأة ؟

— تلقيت برقية من الخارج !

وتفحصها بحب استطلاع وهو يعجب للقوة التى تدفعه
نحوها . ودعاها للذهاب معه فقالت :

— ليس الليلة ..

فضببط أعصابه متسائلا :

— متى ؟

— ليكون غدا .

وعاد إلى عشه حوالى الواحدة فوجد ورده جالسة بالحجرة
الشرقية فقبلها ثم سألها كما كان يسأل زينب :

— ما زلت مستيقظة ؟

فقالت بعتاب :

— طبعا !

ورنت إليه طويلا ثم قالت :

— أرجو ألا تكون أفرطت فى الطعام أو الشراب ..

ولما استلقى فى البيجاما على الديوان زحفت نحوه حتى الصقت شفتيها بشفتيه . ولم يكن راغبا فى شيء ألبتة ولكنه قال لنفسه (لتكن ليلة شرعية !) ولم يدر كيف يعتذر فى الليلة التالية . وحديثه بالتليفون فلم يشر إلى غيابه المنتظر . ومضى إلى باريس الجديدة وهو يهنئ نفسه على استهانته . ورأى الضوء الأحمر يلون مارجرىيت بلون الجنيات الساحرات . وهزه منظر عنقها النحيل ودسامة صوتها . وغشى دخان السجائر الفوانيس الأسبانية المدلاة من سقف مزخرف برسوم العرايا . وتساءل من أين تتسلل النشوة إلى هذا المكان المغلق المعبأ برائحة الخمر والسجائر . وراء عمود ضخم مضىء من الداخل رأى متعانقين فى زهول الأموات . ولكن كيف أقتلعت وردة من نفسه كأنها زهرة صناعية ؟ . ولماذا يلح الموت على تذكيرنا بنفسه بين كل عمل وآخر . ومنذا يستطيع أن يؤكد أن هؤلاء السكارى موجودون ؟

ولما انطلقت بهما السيارة نحو الهرم قالت :

— الليل بارد ..

فشغل جهاز التدفئة فقالت :

— لم لا تذهب إلى بيتك ؟

— لا بيت لى ..

وأوقف السيارة فى محيط من الظلام تحت غطاء كثيف من

السحب وقال بسرور :

— لا نجم واحد ..

وضمها إلى صدره بعنف يكاد ألا يحتمل . ومن دوامة أنفاس

مختلطة همست :

— الظلام مخيف ..

فأسكتها بقبلة وقال :

— لا وقت للخوف .

مسها بديع . ولكن هذا لا شيء . المهم أن تلامس سر أسرار الحياة . واندفعت الكلمات المتقطعة فى أنات كلغة السكوت فى الليل وغنى الانسجام أغنية تبشر بحياة أفضل . وصهرت حرارة الأنفاس قلوبا أضناها البرد . وغابت الأعين حتى عن ظلمة الليل . وتنهد فؤاد فى ظفر وارتياح . وتنهد من ثقل الارتياح . يا ألهى . وتنهد فى فتور وغم . ونظر إلى الظلام البهيم وساءل نفسه أين النشوة الحقيقية ؟ وأين مارجريت فإن الظلام لم يبق منها على شيء . وعاد إلى عشه متجهم الباطن . وقفت قبالته جامدة القسمات . حياها وهو يبتسم . ولبثا واقفين برهة مرهقة . وارتدى على الديوان قائلا :

— أسف ..

فقاطعته :

— لا داعى لاختلاق المعاذير ..

وذهبت فى الحجرة وجاءت ثم جلست على مقعد قريب

وقالت :

— لاحظت جيدا أنك كنت بحاجة إلى تغيير ..

— ليس الأمر بهذه البساطة ..

فكانت بعصبية لم تغلخ فى مقاومتها :

— التحقيق مهمة لا تسر ، ولا داعى لعذاب لا موجب له ، إنى

أسألك سؤالا واضحا : هل فشلنا ؟

فقال بصدق وخمول معا :

— لا مثيل لك ، إنى أؤمن بذلك .

وهى تنظر بعيدا :

— كنت مع امرأة ؟

تردد قليلا وقال :

— إن أردت الحقيقة فأننى لم أبرأ بعد من المرض !

فقالت بحدة لأول مرة :

— لكنه مرض لا يجد علاجاً إلا عند امرأة ..

ثم بهدوء قالت :

— ليس عندى لك إلا الحب فإن زهدت فيه انتهى كل شيء ..

وراقبت صمته بئس ثم استطردت :

— وتقلب الأهواء فى الشباب داء له علاج أما فى العقلاء

أمثالك فلا علاج له .

وأجال بصره فى الحجرة يائسا وقال :

— هل أنا مجنون ؟

— العجيب أن شخصيتك لا توحى بأى نزق !

— لكنى متهم بالجنون لسلوكى ..

هتفت بحدة :

— إن كنت تقصد معاشرتك لى فارجع إلى زوجتك !

— لا زوجة لى .

— إذن فلأذهب أنا ، مشكلتى أبسط من مشكلة زوجتك لأننى

لن أعدم عملا أو مسكنا ..

وخذه قولها وأوشك أن يصرخ فى وجهها (اذهبنى) ولكنه

مد ساقيه وأغمض عينيه .

— كنت مع امرأة ؟

فقال باستهانة وضجر :

— أنت تعرفين .

— من ؟

— امرأة .

— ولكن من تكون ؟



(ليس لك عندي إلا الحب فإن زهدت فيه إنتهى كل شيء)

- لا يهم .
- عرفتھا قبل أن تعرفنى ؟
- مقابلة عابرة ؟
- تحبھا ؟
- كلا .
- لم ذهبت معها إذن ؟
- لعلھا رغبة طارئة ؟
- یعنی !
- وهل ترضخ لأى رغبة ؟
- ليس في جميع الأحوال .
- متى ؟
- باستهانة وضجر :
- عند الإحساس بالمرض .
- هل أنت مولع بالنساء ؟
- كلا .
- ألم تكن تحبنى ؟
- بلى .
- ولكنك لم تعد تحبنى ..
- أحبك ولكن عاودنى المرض ..
- فقالت بحدة :
- لاحظت تغيرك منذ أيام .
- منذ عاودنى المرض .
- فهتفت يحنق :
- المرض .. المرض !
- ثم وهى تنظر نحوه بسحنة منقلبة :
- هل ستقابلها مرة أخرى ؟

— لا أدري ..

— أيسرك أن تعذبني ؟

فننفخ قائلًا :

— قليلًا من الراحة من فضلك .

ونذهب بمارجریت إلى استراحة الطريق الصحراوي في
ليلة شتاء باردة ولكنها صافية السماء مرصعة بالنجوم . وعند

العودة قالت برقة :

— أليس من الأفضل أن يكون لنا مأوى ؟

فأجاب بغموض :

— كلا ..

وقد اقتنع بأنه لا جدوى من الاستمرار ولكنها استاءت من

اجابته وقالت ببرود :

— أنا لا أرتاح لمغامرات الطرق .

فأوصلها إلى الفندق دون أن ينبس بكلمة .

— ١٣ —

نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر.
وماذا يفعل الجائع النهم إذا لم يجد الغذاء . والعاصفة الهوجاء
تجتاحك لتقتلعك . والاستقرار مات ولا سبيل إلى بعثه . وثمة
راقصة سمراء بباريس الجديدة أعجبت به رشاقة قدها ومرح
نظرتها فذهب إلى الملهى دون مبالا بالآخرين . وحيته مارجريت
من فوق المسرح بابتسامة فابتسم لها ثم دعا السمراء إلى
مجالسته . قد تظن مارجريت أنه يمارس معها العوبة غليظة من
الأعيب الغرام ولكنه فقد فى العاصفة روح الدعابة . وأغرى
السمراء بالنقود لتذهب معه ففعلت . ليس أفضل ولكن خيل إليه
أن قلبه اهتز مرة وهى تضحك . على هذا القلب أن يهتز أو أن
يموت . لا الشعر ولا الخمر ولا الحب فأنى نداء تلبى تلك النشوة
المستعصية !

وكل ليلة يذهب بأمرأة. من هذا الملهى أو ذاك أو حتى من
الطريق . وعندما ذهب إلى كابرى ودعا راقصة تدمى منى هرع
إليه يازبك مرحبا مستبشرا فحنق على فرحته التى اعتدها نعيها
لجهاده الخائب .

— اكسلانس .. هل ..

فعبس فى وجهه بجفاء أجفله ومضى بمنى وهو يضمها فى
حضنه أروعته رغبة غريبة فى قتلها . وتخيل أنه يشق صدرها .

بسكين فيعثر فى داخله عما يبحث عنه . القتل هو الوجه الخلفى
للخلق وهو تكملة الدورة الملعزة التى لا تتكلم . وهمست منى :
— مالك !

فقال وهو يصحو منزعجا .

— لا شيء ، إنه الظلام ..

— ولكن لا أحد حولنا ..

وساق السيارة بسرعة جنونية حتى قبضت على ساعده ، ثم
هددته بالصراخ . وهو يغير ملابسه قال لنفسه لابد من شيء ،
الشيء أو الجنون أو الموت . وجلست ورده فى الفراش وهى
تقول :

— أنا ذاهبة ..

فقال برقة :

— إنى مسئول عنك .

— لا أريد شيئا ..

وعادت تقول بعد صمت :

— من المحزن أنى أحببتك بصدق .

فقال بعل :

— ولكنك لا تصبرين على .

فقالت بلهجة قاطعة :

— نفذ الصبر .

وعافتها نفسه فلم يعقب .

وعاد فى الليلة التالية فلم يجد لها أثرا . ابتسم فى ارتياح
واستلقى ببذلته على الديوان مستمتعا بالشقة الصامتة الخالية .
وكل ليلة ساق إليها امرأة جديدة .

وقال له مصطفى وهو يضحك :

— أهلا بأكبر زير نساء فى القارة الأفريقية !

ابتسم فى فتور فاستطرد الرجل :

—سرك يذيع يوما بعد يوم ، حدثنى عنك أكثر من زميل من زملائى ، وتراحت أخبارك إلى بعض زملائك بالنادى ، وهم يتساءلون ماذا قلبه وكيف جدد شبابه ؟

قال بنفور :

—الحق إنى أكره النساء ..

ثم بلهجة جدية :

— أفرغ ما فى نفسك من اضطرابات كى تستقر بعد ذلك بصفة نهائية .

وجاء الربيع فسره أن تنطلق السهرات من القاعات المغلقة إلى الحدائق . وعانى الضجر والأحلام المرهقة . وفى أوقات تسلى بقراءة الشعر فهفت نفسه إلى أشعار الهند وفارس . وحملته مغامراته الليلية إلى كابرى مرة أخرى . وجلس تحت التكعيبية يشرب كأسا ويتلقى نفحات الربيع من وراء السرو . وعزفت أنغام راقصة فإذا بوردة فوق المسرح . لم يدهش لذلك ألفته فلم ينزعج ولم يبتسم . كان ذلك فى الخريف . وتواصلت الفرحة بالنشوة بالحب ثم كان الجفاء . الدورات المفرغة فمتى يحطمها القلب الحزون . متى يخترق الفضاء لغير رجعة . وها هى تلمحه ثم تواصل رقصها . وها هو يازيك يسترق النظرات فى قلق مضحك . أما هو فخلا من القرارات عزمه . ورأى عقب الاستعراضات وردة غير بعيدة فدعاها إلى مائدته . وجاءت باسمه الثغر كأن ما كان لم يكن . وطلب الشراب الذى اشتهر به فى الملاهى الليلية . وقال لها بصدق :

—الحق إنى آسف يا وردة .

فقالت وهى تبتسم ابتسامة غامضة :

— لا يجب أن تأسف على مافات ..

- ثم بنبرة ساحرة :
- وتجربة الحب ثمينة ولولبالعذاب !
- فقال وهو يعض شفته :
- لست طبيعيا ..
- فقال بصوت مهموس :
- اذن فلندع لك بالسلامة .
- وتلاقت عندهما نظرات النساء اللاتي مضى بهن ليلة بعد
- أخرى فابتسمت وردة وتمتم هو :
- بلا رغبة !
- فتساءلت برفع حاجبيها فقال :
- عرفتني بلا استثناء ولكن بلا رغبة !
- ولماذا إذن ؟
- لأن اللحظة الإلهية لاتجود بنفسها أكثر من ثانية واحدة !
- فقالت بامتعاض :
- ما كان أقساك ! إنكم لاتؤمنون بالحب إلا إذا كفرنا به ..
- ربما ، ولكن مشكلتي غير ذلك ..
- وحمل إليه النسيم من الحقول الغارقة فى الظلام شذا
- مسكرا من زهر البرتقال فتح له عوالم خفية من المسرات ،
- فطرب طربا استخفه وأخرجه من قيود الاتزان فسألها بشغف :
- خبريني يا وردة لماذا تعيشين ؟
- فهزت منكبيها وأتت على كأسها ، ولكنه كرر سؤاله بجدية
- لا لبس فيها فقالت :
- وهل لهذا السؤال من معنى ؟
- لا بأس أن نسأله أحيانا .
- إنى أعيش ، هذا كل ما هنالك .
- بل إنى أنتظر جوابا أفضل ..

فكرت قليلا ثم قالت :
— لنقل إنى أحب الرقص ، والإعجاب ، وأتطلع إلى الحب
الحقيقى !
— هذا يعنى أن الحياة عندك هى الحب ..
— ليكن ..
— ألم تحبى مرة ثم كرهت الحب ؟
فقالت بامتعاض :
— غيرى فعل ..
— وأنت ؟
— كلا ..
— كم مرة أحببت ؟
— قلت لك يوما ..
ولكنه قاطعها :
— لندع جانبا ما قلته يوما ، صارحبنى الآن بكل شيء ..
— هل هو طبعك الوحشى يغلبك ..
— ألا تريدن أن تتكلمى ؟
— قلت ما عندى ..
فتنهت أسفا ، ثم سألها محموما :
— والله ، ما موقفك منه ؟
حدجته بنظر ارتياح حادة فقال بثوسل :
— أجيبينى من فضلك يا وردة .
— أو من به ..
— بيقين ؟
— طبعا ..
— من أين جاء اليقين ؟
— إنه موجود وكفى ..

— أتفكرين فيه كثيرا ؟

ضحكت كالمرغمة وقالت :

— عند كل حاجة أو شدة ..

— وفيما عدا ذلك ؟

فقالته بحدّة :

— ألا ترى أنك تحب تعذيب الآخرين ؟

ولبت فى الملهى حتى الثالثة صباحا ثم انطلق بسيارته — وحده — إلى الطريق الصحراوى . وقال أن خروجه وحده هذه الليلة يعتبر تطورا ذا شأن . ثم أوقف السيارة فى جانب من الطريق المقفر وغادرها إلى ظلمة شاملة . ظلمة غريبة كثيفة بلا ضوء إنسانى واحد . لا يذكر أنه رأى منظرا مثل هذا من قبل ، فقد اختفت الأرض والفراغ ووقف هو مفقودا تماما فى السواد ، ورفع رأسه قبل أن تآلف عيناه الظلام فرأى فى القبة الهائلة آلاف النجوم عناقيد وأشكالا ووجدانا . وهب الهواء جافا لطيفا منعشا موحدا بين أجزاء الكون . وبعدد رمال الصحراء التى أخفاها الظلام انكتمت همسات أجيال وأجيال من الآلام والآمال والأسئلة الضائعة . وقال شىء إنه لا ألم بلا سبب وأن اللحظة الفاتنة الخاطفة يمكن أن تمتد فى مكان ما إلى الأبد . وقد يتغير كل شىء إذا نطق الصمت وها أنا أضرع إلى الصمت أن ينطق . وإلى حبة الرمل أن تطلق قواها الكامنة وأن تحررنى من قضبان مجزى المرهق . وما يمنعنى من الصراخ إلا انعدام ما يرجع الصدى . وأسند جسمه إلى السيارة ونظر نحو الأفق . وأطال وأمعن النظر . وشمة تغير جذب البصر . رق الظلام . وانبثت فيه شفافية . وتكون خط فى بطاء شديد ومضى ينضح بلون وضىء عجيب . كسر أو عبير . ثم تؤكد فانبعثت دفقات من البهجة والضياء والنفسان . وفجأة رقص القلب بفرحة شمة .

واجتاح السرور مخاوفه وأحزانه ، وشد البصر إلى أفراح الضياء
يكاد ينتزع من محاجره . وارتفع رأسه بقوة تبشربأنه لن ينثنى .
وشملته سعادة غامرة جنونية أسرة وطرب رقصت له الكائنات
فى أربعة أركان المعمورة . وكل جارحة رنمت وكل حاسة سكرت
واندفنت الشكوك والمخاوف والمتاعب . وأظله يقين عجيب ذو ثقل
يقطر منه السلام والطمأنينة . وملأته ثقة لا عهد له بها وعدته
بتحقيق أى شىء يريد . ولكنه ارتفع فوق أى رغبة وترامت
الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب . لا شىء . لا أسأل صحة ولا
سلاما ولا أمانا ولا جاها ولا عمرا . ولتأت النهاية فى هذه اللحظة
فهى أمنية الأمانى .

ولبث يلهث ويتقلب فى النشوة . ويتعلق بجنون بالافق .
تنفس تنفسا عميقا كأنما ليسترد شيئا من قوته عقب شوط
من الركض المذهل . وشعر بدبيب آت من بعيد . من أعماق نفسه .
دبيب إفاقة ينذر بالهبوط إلى الأرض . عبثا حاول دفعه أو
تجنبه . أو تأخيريه . راسخ كالقدر ، خفيف كالثعلب ، ساخر
كالموت . تنهد من الأعماق واستقبل موجات من الحزن . وأفاق
والضياء يضحك .

رجع إلى مجلسه بالسيارة . ودفعها بلا حماس . ونظر إلى
الطريق بفتور كأنما يخاطب شخصا أمامه :

— هذه هى النشوة .

وقال بعد صمت :

— اليقين بلا جدال ولا منطق ..

ثم بصوت مسموع أكثر :

— أنفاس المجهول وهمسات السر ..

وتساءل وهو يزيد من سرعة السيارة :

— ألا يستحق أن ينبذ كل شىء من أجله ؟



إن خروجه وحده هذه الليلة يعتبر تطورا ذا شأن

— ١٤ —

استيقظ فى عشه الخالى على رنين جرس التليفون فتناول
السماعة ، وجاءه صوت مصطفى :

— أين كنت طوال الليل ؟

ولما لم يجب قال :

— زينب فى مستشفى الولادة .

ومرت لحظات قبل أن يفقه المعنى ثم تذكر أنه زوج وأب وأن
مزيذا من الأبوة ينتظره .

وفى بهو الاستقبال بالمستشفى وجد مصطفى وبثينة
وعليات زوجة مصطفى وهى امرأة رزينة قوية الشخصية فى
الأربعين من العمر ممثلة مع ميل إلى القصر مستديرة الوجه
والقسمات . ولما جاء دور بثينة فى المصافحات مدت له يدها
وهى تفض البصر لتخفى وجومها .
وقال مصطفى :

— هى فى حجرة الولادة ، وكل شىء طبيعى ..

وهم بالذهاب إلى الحجرة فقالت عليات بحذر :

— كنت بالداخل ، وها أنا ذاهبة إليها ..

— ألا أدخل أيضا ؟

فقال مصطفى :

— يحسن تجنب الانفعالات الطارئة ..



وهم بالذهاب إلى الحجرة ..

ولم يطل بهم الانتظار فقد رجعت عليات متهللة الوجه وهى تقول
لعمر :

— مبارك عليك ولى العهد ، وزينب فى طريقها محمولة
إلى حجرتها ..

نظر إلى بثينة بشوق ، ثم جلس إلى جانبها واضعا راحته
فوق يدها دون كلام فتركها بعض الوقت حياء ثم سحبها برقة.
وقال مصطفى وهو يتابع الحركات الخفية :

— من حسن الحظ أن المستشفيات من الأماكن التى تنسى
فيها الخصومات ..

فسأله وما يزال يشعر بخيبة أمل لانسحاب اليد :

— متى جاءت إلى هنا ؟

— حوالى منتصف الليل ..

والمناقشة دائرة مع وردة فى اعياء تنعشه الشمبانيا .

— ولم تذهبي إلى المدرسة .. ؟

— طبعا جاءت مع مامتها ..

— شكرا لك يا عليات وشكرا لك ..

فقالت عليات وهى تغادرهم إلى حجرة زينب (عفوا) ثم قال
مصطفى :

— وقد تعبت جدا عند الفجر ..

آه .. الفجر فى الصحراء والنشوة الخيالية الخالدة . ولكن
أين ؟ . واستأذن مصطفى فى الذهاب لينام فليث هو وبثينة
وحدهما ينتظران . وانتبه بحساسية إلى حرج موقفه . وقال
بعطف :

— لم تنامى يا بثينة ؟

فهزت رأسها بالإيجاب وهى تنظر إلى سجادة البهو
السحائية اللون :

- ألا ترغبين فى محادثتى ؟
فخجلت من المقاطعة الصريحة وتساءلت :
— ماذا أقول ؟
— أى شىء ، ومهما يكن من أمر فأنا أبوك وصديقك وما
بيننا من علاقة لا يمكن أن ينفصم ..
ولاذت بالصمت فى تأثر شديد .
— ألا توافقيننى على ذلك ؟
فهزت رأسها بالإيجاب ورسمت شفتاها لفظ الموافقة .
— أنت زعلانة ، وهذا طبيعى ، ومهما يكن من الأمر فهو لا
يمسك مباشرة ، ومقاطعتك لى غير مقبولة ، وقد دعوتك مرارا
لزيارتى فلماذا لم تحضرى ؟
— لم أستطع ..
— هل منعك أحد ؟
— كلا ، ولكننى كنت حزينة جدا ..
— أكان حزنك أكبر من حبنا ؟ !
فقالت بمرارة :
— لم تزرنا مرة واحدة .
— لم يكن ذلك بالممكن ، ولكنى دعوتك مرارا فكان عليك أن
تأتى ، وقد نفص امتناعك راحتى ولم تكن فى حاجة إلى مزيد ..
فقطبت لتكتسب صلابة تطرد بها حنان الدمع وقالت :
— منعنى حزنى ..
— يا للأسف لا أحب لك السلبية ، وكنت فى حاجة إليك فى
غربتى !
وابتسم ليخفف من توتر الجوشم قال :
— حسبنا عتابا ، لا وقت الآن لذلك ..
وربت على منكبيها وسألها مغيرا المجرى :

— ما أخبار الشعر ؟
فابتسمت ابتسامة خفيفة لأول مرة فقال بحرارة :
لعلنا لم نكن فى يوم من الأيام أقرب ما يكون لبعضنا مما
نحن فيه اليوم !
— ماذا تعنى ؟
— يخيّل إلى أننا حول منبع واحد ..
حولت إليه عينيها الخضراوين مستزيدة فقال :
— رجعت إلى الشعر أقرأه وأحاوله ..
— حقا ؟
— مجرد محاولات فاشلة ..
— لمة ؟
— لا أدرى ، ربما لأن الغبار أكتف من أن يزول بنفضة واحدة
أو لأن أزمته أقوى من الشعر ..
— أزيمة ؟
— أعنى مرضى .. !
فابتسمت وهى تنظر إلى الأرض فسألها بانكار :
— ألا تصدقيننى ؟
— أصدقك دائما !
فحزه قولها وقال :
— يجب أن تصدقيننى رغم الكذبة الوحيدة فى حياتنا ، كانت
كذبة ضرورة ولن تتكرر ، أما مرضى فهو حقيقى ..
— ألم تعرف بعد ما هو ؟
فكر قليلا ثم قال :
— عذاب يعالج بالصبر الطويل ..
فتساءلت فى اشفاق :
— بعيدا عنا ؟

فقال بهدوء ويقين :

— أنا أعيش وحيدا !

فرمقته بنظرة استغراب فقال :

— وحيدا ، صدقينى ..

— ولكن ..

— الآن وحيدا .

فتساءلت بلهفة أرضت عواطفه :

— ولم لم تعد يا بابا ؟

فلثم خدها الموردة وقال :

— لعله من الخير أن أبقى كذلك ..

— كلا ..

وأمسكت بيده وكررت :

— كلا ..

وجاءت عليات لتدعوه إلى الحجرة فذهب . رأى زينب

مغطاة بملاءة بيضاء إلا الوجه ..

وتبدى الوجه شديد الشحوب ممصوص الحيوية نصف

مغمض العينين . شعر بعطف واحترام ورثاء . وقال ها هي تخلق

على حين يعجز هو عن الخلق . وتمتم بشيء من الارتباك :

— حمدا لله على سلامتك .. فردت بشبه ابتسام فقال :

— مبارك عليك ولى العهد !

وجلس محاصرا بالحرج حتى خفف عنه دخول عليات وبثينة

وأحسنات عليات ملء الجو بال نوادر والملح فمر الوقت دون إرهاق

وجاءوا بالمولود فى فراشه .. وكشفوا عن وجهه . رأى كتلة لحمية

متموجة حمراء ، مغطوة القسماات ، ليس من اليسير أن

يتصور أن سيكون لها شكل فضلا عن شكل مقبول . ولكنه تذكر

تجارب مماثلة سابقة تنحنى إحداها فوق فراش الوليد لترمقه

بدهشة وحنان من عينيها الخضراوين . ولم يجد نحوه شعورا
مميزا غير أنه أدرك أنه سيحبه كما ينبغي وقنع منه بنظرة حياء
متسائلة . لو لم تكن عاجزا عن التعبير كأبيك لسألتك عن
مشاعرك وعن ذكرياتك عن العالم الذى جئت منه لتوك .

وسألت عليات :

— هل اخترتم له اسما ؟

فأجابت بثينة :

— سمير ..

اذن فليحبه اسمه من الضجر . وقالت عليات بلهجة ذات

مغزى :

— لتكن نشأته فى أحضان والديه !

ورغم انسيابه فى أسرار الخلق لم يساوره أدنى أمل فى
التغير . ولا خرج من غرخته الأبدية . ولم يملأ الوليد الثغرة التى
تفصل بينه وبين زينب . وراح يتساءل حتى متى يبقى فى
مجلسه محطاً للنظرات والتساؤل .

وأزف وقت الغداء فاستأذن فى الانصراف وذهب . ولحقت به
بثينة خارج الحجرة وقد استردت شجاعتها الطبيعية الصريحة
معه . قالت :

— بابا .. لن تبقى وحيدا ..

وكان يعلم أنه لم يعد بحاجة إلى شقيقته الخالية ، وأنه يحلم
بوحدة جديدة ، فتساءل مستسلما :

— ماذا تريدون ؟

— أن تعود ..

فلثم خدها وهو يقول :

— على شرط ألا تضيقوا بى ..

وتأبطت ذراعه ، وأوصلته حتى الباب الخارجى بوجه مشرق .

— ١٥ —

العود إلى البيت دون تغير . لا كراهية لزینب ولا حب لها .
واختفاء الكراهية دليل على اختفاء زینب نفسها . ودليل انتصار
نهائى على دنياها . وانتصار الغربية الزاحفة . وقال لها :
— علينا أن نتقبل محنتنا بشجاعة .
وتبدت شجاعة حقا . حتى حجرته هجرتها . وقال لها بتأثر :
— أنت مثال للكمال .

وانقطع عن مغامرات الليل الخائبة . ووهبته بثينة جميلة
وسمير مسرات لا تنكر . والنيل يجرى تحت الشرفة بلا توقف
وهو يسأل بلهفة متى تعود رحمة الفجر فى الصحراء . واعتكف
فى حجرته طول الليل يقرأ ويتأمل حتى يجىء الفجر فيمضى
إلى الشرفة وينظر إلى الأفق يتساءل أين الرحمة أين . وما هى
ترانيم فارس والهند والعرب المليئة بالأسرار ولكن أين السعادة
أين ! . ولم تشعر بالكآبة وأنت بين هذه الجدران الرحيمة ؟ . وما
هذا الشعور المقلق الذى يهمس لك بأنك ضيف غريب موشك على
الرحيل . وإلى أين ؟ . وقال مصطفى :

— الحمد لله على أن عاد كل شىء إلى أصله .
فقال بازدراء :

— لم يعد شىء إلى أصله ..
فتجنب المناقشة فى إشفاق فقال عمر بتحد :

— لم أعد إلى البيت ، لم أعد إلى العمل ..
— ولكن يا عزيزى ..

— ولا يعرف أحد ماذا تقول الساعة التالية .

وفيما كان بمكتبه عصرا إذ فتح الباب ودخل رجل . ربة
متين البنيان ، شاحب اللون ، كبير الوجه ، حليق الرأس ، قوى
الفكين والأنف ، يشع من عينيه العسليتين نور حاد . نظر إليه
عمر منكرا لأول وهلة ثم انتتر واقفا وهو يهتف بصوت متهدج :
— عثمان خليل !

وتعانقا طويلا وعمر فى غاية من الانفعال ، ثم جلسا على
المقعدين المتقابلين أمام المكتب ولسانه لا يتوقف عن كلمات
الترحيب والتهنئة والتبريك ، والآخر يبتسم وكأنه لا يجد ما
يقوله . وحل صمت قصير كرد فعل فراحا يتبادلان النظر .
وتعوجت الخيلة بالذكريات . وتحركت فى الأعماق مشاعر غريبة
منذرة بكل ظن . وارتفع مد حاملا دفعات من القلق والتوجس .
وطالما طافت به لحظة اللقاء المرتقبة وطالما عمل لها ألف حساب
ولكنها حلت رغم ذلك بغتة كمفاجأة غير ممكنة التوقع . ولم
يقدر الزمن ونسى كل شيء فى العهد الأخير ومع ذلك فإن المدة
لم تنقض بالتمام ولم يستنتج إلا الساعة أن ثلاثة أرباعها قد
انقضى ! . وها هو يلقيه أبعد ما يكون عن الاستعداد النفسى
لذلك . رجل خارج من السجن إلى الدنيا ورجل يتحفظ للخروج
من الدنيا إلى عالم مجهول .

— يا له من عمر طويل !

ابتسم عثمان ، فقال عمر :

— لم تغب عنا فيه ساعة واحدة ، وها هو وجهك مصمم على
الحياة كعادتك !

فقال بصوت حلقى دسم :



أريد أن تتحدث وأن أسمع

— وأنت لم تكدي تتغير في الصورة ولكن صحتك ليست كما يجب !

سر للملاحظة الأخيرة وقال :

— بلى ، مرضت ، وعانيت أزمات غريبة ، ولكن من فضلك لا تجعل منى موضوعا للحديث ، أريد أن تتحدث وأن أسمع .

ودخل فراش بالكوكا والقهوة ثم قال عثمان :

— مضت أعوام وأعوام ، اليوم يسنة في قرفه والسنة بيوم في تفاهتها ، ولكن لا تنتظر أن أتحدث عن حياة السجن .

— مفهوم .. أسف .. ولكن متى خرجت ؟

— منذ أسبوعين ؟

— وكيف لم تحضر إلا اليوم ؟

— سافرت من فورى إلى القرية وكنت مريضا بالانفلوانزا ولما شفيت رجعت إلى القاهرة .

— لا فائدة من الهرب إلى الأحاديث الجانبية . واحساسك بالذنب يزداد حدة .

— كم عذبنا أننا لم نستطع زيارتك ..

فقال عثمان بوجه لا ينبىء عن شيء :

— كان سيقبض على أى زائر من غير الأهل .

— وكم وددنا لو كان فى الإمكان أن نطمئن عليك .

— الحق أننا عوملنا معاملة سيئة جدا أول الأمر ولكنها

تغيرت بطبيعة الحال بعد قيام الثورة .

فتقلص وجه عمرايا عن أسفه فاستطرد الآخر :

— ولكن ثبت لى أنه إذا قذف بنا إلى الحجيم فإننا حتما

سنعتاد ونألف الزبانية !

وأذعن عمر لإحساسه بالذنب فاعترف قائلا :

— العدل كان يقضى بأن نذهب معك إلى السجن ..

فقال بسخرية :

— القانون هو الذى أدخلنى السجن لا العدل !

فتمتم عمر بخشوع :

— على أى حال فنحن مدينون لك بحريتنا وربما بحياتنا ..

— أليس ذلك ما كنت تفعله لو القبض ألقى عليك أنت وكنت

أنا من الهاربين ؟

فلم ينبس عمر بكلمة حياء وارتباكاً واستطرد عثمان

بمرارة :

— وما أنا فى الدنيا من جديد وفى منتصف الحلقة

الخامسة .

فقال عمر بحزن :

— قد عشناها خارج الأسوار ولكن يخيّل إلى أننا لم نفعل

شيئاً ذا بال ..

فهتف محتجاً :

— لا تقل ذلك ، لا تفقدنى البقية الباقية من العزاء .

تحركت مخاوفه مرة أخرى وشعربانه جثة منسية فوق سطح

الأرض . وقال :

— مارسنا عملاً ، وتزوجنا ، وأنجبنا ، ولكن يخيّل إلى أنه

ليس لى ما أحصده إلا الهباء ، ولكن معذرة لا يحق لى أن أتكلم

عن نفسى .

— ولكننا نصفان متكاملان !

الماضى المنقضى والحساب العسير . وقال بفخار فى

بدروم بيت مصطفى المنياوى (خليتنا قبضة من حديد لا يمكن

أن تنكسر . ونحن نعمل للإنسانية جمعاء لا للوطن وحده .

ونحن نبشر بدولة البشرية . نحن نخلق بالثورة والعلم

عالم الغد المسحور)

ولما أصابته القرعة قال (أنا سعيد ، مصطفى عصبى وأنت عريس ، وغدا تلقى قنبلة على خنزير من المولعين بمص الدماء)

— كان التدبير محكما ، ولولا رصاصة طائشة أصابت ساقك لما قبضوا عليك ..

— أجل ، وماذا فعلت أنت ومصطفى ؟

— سهرنا حتى الصبح والحزن يقتلنا ..

فضحك ضحكة قصيرة وسال :

— ألم تخافا أن أعترف ؟

— فكر مصطفى فى الهرب ودعانى إلى ذلك ، وفكرنا فى الاختفاء ، وذقنا أياما تعيسة ولكنك كنت فوق مستوى الإنسان وكنا وما زلنا لا شيء ..

ويعتاد الإنسان الجحيم كما يعتاد التضحية بالغير ! ومهما يكن من قذارة الفأر فإن منظره فى المصيدة يثير الرثاء .

وأشار عثمان إلى المساعدات التى تلقاها والداه — قبل وفاتهما — من عمر ولكن عمر أبى أن يسمع بقية الإشارة. وعند ذلك قال عثمان :

— لا أريد أن أسف على ما فات ، فقد اخترت مصيرى بوعى كامل ، والآن أن لك أن تسمع شئى عن أخبار الدنيا ؟

فقال عمر يدهاء وهو يرنو إلى النجاة من بعيد :

— ليكون المستقبل أهم ما يهمنا ..

— المستقبل ؟ .. أجل .. سأنفذ الغبار على اليسانس ..

— وإليك مكتبى تحت أمرك ..

— عظيم ، ولا اعتراض لأحد فى الجهات الرسمية على أن أعمل ..

— إذن فلتبدأ من اليوم ..

— شكرا .. شكرا .. ولكن حدثنى عن أخبار الدنيا ؟
 لا يريد أن يتزحزح . يا للغرابة . كأنك لم ترتبط به يوما ما .
 وكأنك لم ترغب قط فى هذا اللقاء . لا شيء مشترك بينكما
 إلا تاريخ ميت ولا يوحى إليك إلا بمشاعر الذنب والخوف
 وازدراء النفس . ولم يدر بعد بأن كتب الغيب حلت محل
 الاشتراكية فى مكتبتك . وها هو يعترضك كقدر وأنت تهرب من
 الأهل والدنيا .

وضاق عثمان بصمته فسأله مستدرجا :

— حدثنى من أصحابنا ؟

— آوه .. تفرقوا ، لا أعرف منهم اليوم إلا مصطفى المنيأوى ..

— وماذا فعلتم ؟

— الحق أن السنوات التى تلت القبض عليكم اتسمت
 بالعنف والارهاب فلم يكن بد من أن نركن إلى الصمت ، ثم
 انشغل كل بعمله ، وتقدم بنا العمر على نحو ما ، ثم قامت الثورة
 وأنهار العالم القديم ..

قبض عثمان على ذقنه العريضة بيده ، وعكست عيناه
 المشعتان نظرة باردة لعله ينعى الأعوام الضائعة . ما أبغض هذا
 الموقف الذى أرق نومه مرات ككابوس . وقال عثمان :

— طالما ساءلت نفسى لماذا ، أجل لماذا ، وبدأت لى الحياة خدعة
 سمجة ، وعجبت للأقدار التى انهالت على رأسى ، أقدام أناس
 تعساء من صميم الشعب الذى سجننت من أجله ، وتساءلت لماذا ،
 هل تعنى الحياة أن نستوصى بالجبن والعماء ؟ ولكن ليس كذلك
 النمل ولا بقية الحشرات ، ولا أطيل عليك فقد استرددت إيمانى ..
 يا لسوء الحظ !

— استرددت إيمانى فوق الصخور وتحت أشعة الشمس ،
 وأكدت لنفسى بأن العمر لم يضع هدرا ، وأن ملايين الضحايا

المجهولين منذ عهد القرد قد رفعوا الإنسان إلى مرتبة سامية !
أحنى عمر رأسه إعراباً عن الموافقة والاحترام ! واستطرد
عثمان بنبرة لم تخل من حنق :

— من الحق التعرض بماض مسلول ما دام المستقبل ينهض
راسخاً بصورة أقوى ملايين المرات من جبن الجبناء .

فقبض على أداة نجاة وسط العاصفة الهوجاء قائلاً :

— عل أى حال فقد تقوض العالم القديم المرئول وقامت ثورة
حقيقية فتحقق حلم من أحلامك ..

انظر إلى وجهه كيف يتجههم . وتتجمع فيه عاصفة مريدة .
وها أنت تتجرع هزيمة فى ميدان لم يعد يهيك فى شيء . ألا
يعلم بأننى لم يعد يهمنى شيء !

وقال عثمان بأسف :

— لو لم تسارعوا إلى الجحور لما فقدتم الميدان .

— لم تكن لدينا قوة ولا أتباع فى الشعب يعتد بهم ، ولو
وقعت المعجزة على أيدينا لهبت قارات للقضاء علينا ..

— المؤسف أن المرضى لا يفكرون إلا فى المرض ..

— وهل ترى من العقل أن يتجاهلوه ؟

— ليس العقل ولكنه الجنون ، ألم تدرك بعد كم أن العالم

مدين للجنون ؟

فقال ملاطفاً :

— على أى حال قد قامت الثورة وهى تشق طريقها بعقلية
اشتراكية حقيقية ..

فحدجه بنظرة متفحصة طويلة حتى قرأ فيها معانى لم تسره
فقال :

— وهى التى لم تمس رموس أموال أمثالى من الناس فقد
فرضت ضريبة عادلة . ثم بنبرة عصبية :

— صدقنى أننى لست عبداً لشيء ، فليذهب كل شيء إلى

الجحيم ..

فابتسم عثمان وسأله :

— صارحنى يا عزيزى أما زلت مؤمناً كما كنت ؟

فتفكر عمر ملياً فوق حافة الهاوية ثم قال :

— كذلك كنت قبل قيام الثورة ، فلما أن قامت الثورة اطمأن

بالى ثم أخذت أفقد الاهتمام بالسياسة وأولى وجهى وجهة

أخرى..

قطب متسائلاً :

— وجهة أخرى ؟ !

قال بحذر :

— يحلو لمصطفى أحياناً بأن يصفها بأنها حنين جارف إلى

الماضى الفنى ..

فتساءل بامتعاظ :

— وهل من تعارض بين الفن والمبدأ ؟ !

فقال وهو يزداد ضيقاً وحرماً :

— ليس الأمر بهذه البساطة ..

فقال بوجوم :

— لا أفهم سوى أنك لم تعد أنت ..

كما قالت زينب ووردة من قبل ! .. قال :

— أعترف بأننى لم أعد أستحق أن أكون موضع تفكيرك .

ثم بلهجة فيها شيء من المرح :

— المهم الآن هو أن تبدأ حياتك الجديدة لتعوض ما فات ..

فقال بلهجة ثقيلة :

— أخشى ألا أجد حقاً ما يعوضنى عما فات .

— هاك مكتبى تحت أمرك ، وجميع ما يلزمك للبدء ..

— إنى عاجز عن الشكر .
— بل هو دون ما تستحق ، وسوف أظل ما حييت مدينا لك
بالحياة ..
ثم بلهجة تحررت كثيرا من الخوف والحرص :
— لا شك أنك فى شوق لرؤية زينب والأسرة ومصطفى
فلنتعش الليلة فى البيت ..

— ١٦ —

وليمة العشاء حفلت بالأطعمة والأشربة والذكريات .
واغرورقت عينا زينب وهى ترحب به وشدت على يده طويلا
على حين عانقه مصطفى المنيأوى عناقا حارا ، أما عليات فكان
يراهما لأول مرة. وجلست بثينة إلى جانبه على المائدة وأعلن
بدهشة أنها صورة من شباب أمها . ولما قدمت فواتح الشبهة قال:
— لن أبالغ فى صنف لأذوق جميع الأصناف ..
والتفت نحو بثينة قائلا :
— قالوا لك إنى صديق قديم ، وهذا بعض الحقيقة لا الحقيقة
كلها ، أنا صديق قديم خارج من السجن ..
واعتبرتها بثينة نكتة فابتسمت فقال :
— صدقيني فأنا صديق قديم وسجين قديم .
وعند ذلك قالت زينب :
— إذن يجب أن تعلم أنك بطل سياسى لا مجرد سجين !
ورمقته بثينة باهتمام مشوب بدهشة فقال :
— بطل أو مجرم ، هى من أسماء الأضداد ..
وقال لها عمر :
— عثمان صديق قديم ، وهو زميلى فى المكتب الآن ، وله
قصة طويلة سأقصها عليك فيما بعد ، ولكنك تعرفين شيئا ولا

شك من المسجونين السياسيين ..
فسألت بثينة عثمان :
— أسجنك الملك ؟
فقال والسفرجى يضع فى طبقه شريحة من الديك وكمية من
البازلاء :
— بل المجتمع كله ..
— وما فعلت ؟
لم يجب فقال مصطفى ضاحكا :
— كان اشتراكيا قبل الأوان ..
ثم وهو يغمز بعينه :
— وكان يهوى اللعب بالقنابل
فاتسعت العينان الخضراوان ولكن زينب قالت لعثمان
بلباقة لتحويل المجرى :
— بثينة شاعرة .
فنظر إلى عمر باسم وقال :
— الشعر وراش فى هذه الأسرة !
فقال له مصطفى محذرا :
— لكن شعرها ترنيمات موجهة للذات الإلهية .
وهم بتفجير سخرية ولكنه أمسك فى اللحظة المناسبة
وقال بأدب :
— أرجو أن يسعدنى الحظ بالاستماع إلى بعض هذه
الترنيمات ..
ونجح عمر فى إخفاء ضيقه . وتناول حمامة محشوة وقال
لنفسه أنها لو أحسنت الطير لما أكلت . ولاحظ مجاملات المائدة
المتبادلة بين بثينة وعثمان بارتياح . وإذا بالفتاة تسأل جارها :
— وكيف صبرت على حياة السجن ؟



ثم وهو يغمز بعينه : وكان يهوى اللعب بالقنابل ..

- صبرت لأنه لم يكن من الصبر بد . وعرفت بحسن السير والسلوك ، والظاهر أننا لا نسيء السلوك إلا في المجتمع .
- وضحك ثم استطرد :
- الواقع أن السجن لا يخلو من مزية ، فالسجناء يمارسون حياة لا تطبيقية فيها مما نحب أن يتحقق في الحياة ..
- لكنى لم أفهم شيئا ..
- سوف تفهمين كلامى إذا أمكن أن أفهم شعرك .
- هل قرأت شعر بابا ؟
- طبعا .
- وهل أعجبك ؟
- وقال عمر محتجا :
- كيف بالله تأكلان وأنتما لا تكفان عن الحديث ؟ !
- ولكن عثمان أحب محادثتها ، وقد سألها :
- هل ستدرسين الآداب فى الجامعة .. ؟
- العلوم .
- برافو ، ولكن كيف وأنت شاعرة ؟
- فقالت زينب بفخار :
- إنها متفوقة فى العلوم .
- وقالت بثينة :
- وبابا متحمس لدراسة العلم ..
- فرمق عثمان عمر بنظرة حائرة ثم قال لبثينة :
- سوف تدركين يوما أنه الأمل المنشود .
- ولكنى لن أتخلى عن الشعر .
- وما البأس فى تلك الحال ؟ !
- وكما عاما قضيت فى السجن ؟
- حوالى العشرين !

فرمته بنظرة ذاهلة فضحك قائلاً :

— ومع ذلك فقد عرفت رجلاً فى السجن لا يرغب فى مغادرته ، وكلما قاربت مدته الانتهاء ارتكب جريمة خفيفة ليجددوا له المدة ..

— تصرف غير معقول !

فقال بلهجة جادة :

— ما أكثر التصرفات غير المعقولة !

وقال عمر معاتباً :

— ألا تريدون له أن يأكل ؟

وقدمت لهم القهوة فى حجرة الاستقبال . ولم ينقطع الحديث بين عثمان وبثينة . وحوالى العاشرة اقترح مصطفى أن يجلس ثلاثتهم بالشرفة ، وانتقل النساء إلى حجرة الجلوس ، وأراد عثمان أن يعرف ماذا صنع مصطفى بحياته فقص عليه هذا قصته بصراحة واستهانة وجرأة غير متوقعة . ولم يقنع بذلك ولكن قال :

— ها قد وقفت على أحوالنا فماذا يدور فى رأسك الكبير ؟

وكان عثمان قد عاد — بعد اختفاء بثينة — إلى الفتور

والتجهم فقال :

— على أن أبدأ حياتى أولاً كمحام .

— إنما أسأل عما يدور برأسك !

— وعلى أن أدرس ما حولى ..

— من حقل هذا ، غير أن موقفنا القديم لم يعد ضرورة

حتمية ..

فقال بغلظة متحدية :

— أعنى أن الدولة الآن اشتراكية مخلصه وفى هذا

الكفاية ..

وظل عمر صامتا ينظر نحو النيل الذى يجرى عاكسا أضواء
المصابيح تحت هلال مرشوق فى الأفق . وقال عثمان بمرارة :
— إذا كنت قد تغيرت فلا يعنى هذا أن الحقيقة يجب أن
تتغير ..

— لم نتغير ولكننا تطورنا ..
— إلى الوراء
— الوطن تطور إلى الأمام بلا شك ..
— ربما ولكنكما تطورتما إلى الوراء .
وظل عمر ينظر إلى الهلال أما مصطفى فسأله بمرح :
— ألم يقنعك ما ضحيت به من عمر ؟
فقال بحنق :
— الحقيقة لا تقنع .
— يا مزيى لست المسئول الوحيد عنها ..
— الإنسان إما أن يكون الإنسانية جمعاء وإما أن يكون
لاشئ ..

فقال مصطفى ضاحكا :
— إننى لم أستطع أن أكون مصطفى فحسب فكيف يمكن أن
أكون الإنسانية جمعاء ؟ !
— يا لغداحة الفشل ! .. لا أصدق ما حل بكما من تدهور ..
لم يستطع مصطفى أن يتجاوب معه فى حديثه ولكنه أشار
إلى عمر وقال :
— دعك من عمر فهو يعانى أزمة حادة .. لقد كره العمل
والنجاح والأسرة ..
نظر عثمان إلى عمر متسانلا ولكنه لم يحول وجهه عن
النيل ، فقال مصطفى :
— كأنما يبحث عن نفسه ..

فقطب عثمان كالمنزعج وقال :
— أليس هو الذى أضاعها ؟
ثم خاطب نفسه متأوها :
— هل انتهى الحال إلى التأملات الفلسفية !
فقال مصطفى وكان يغالب الاستسلام للمرح طوال الوقت :
— طالما اعتقدت أنه يريد أن يبعث جانبه الفنى المكبوت ،
وحاول ذلك وما زال ، ولكنه يحلم أحيانا بنشوة غريبة ..
— زدنى فهما ..
فتحول عمر نحوهما قائلا :
— أرح نفسك وأعتبره مرضا ..
فحدجه بنظرة ثابتة وتمتم :
— لعله مرض حقا ، إذ أنك ضيعت جانبك الصحيح المعافى ..
فقال مصطفى :
— أو أنه يبحث عن معنى لوجوده .
— عندما نعى مسئوليتنا حيال الملايين فإننا لانجد معنى
للبحث عن معنى ذواتنا !
فتساءل عمر مضجرا :
— ترى هل تموت الأسئلة إذا قامت دولة الملايين ؟
— ولكنها لم تقم بعد !
ونقل عينيه بينهما ثم قال :
— والعلماء يبحثون عن سر الحياة والموت بالعلم لا بالمرض !
— وإذا لم أكن من العلماء ؟
— فلا أقل من ألا تثير فى وجوه العاملين غبار النواح
والولولة ..
فقال مصطفى :
— إنك تقذف بالفاظ مدببة على حين يعانى صديقنا ألم

حقيقيا ..

— أنا آسف وأخشى أن أظل أسفا إلى الأبد ..

وتساءل عمر :

— ولكن ألا يسعفنا القلب إن فاتنا أن نكون من العلماء ؟

— القلب مضخة تعمل بواسطة الشرايين والأوردة ، ومن

الخرفة أن نتصوره وسيلة إلى الحقيقة ، والحق أنى أقترب من

فهمك ، فأنت تتطلع إلى نشوة ، وربما إلى ما يسمى بالحقيقة

المطلقة ، ولكنك لا تملك وسيلة ناجحة للبحث فتلوذ بالقلب

كصخرة نجاة أخيرة ، ولكنه مجرد صخرة ، وسوف تتقهقر بك إلى

ما وراء التاريخ ، وبذلك يضيع عمرك هدرا ، حتى عمرى الذى

ضاع وراء الأسوار لم يضع هدرا ، ولكن عمرك أنت سيضيع

هدرا ، ولن تبلغ أى حقيقة جديرة بهذا الاسم إلا بالعقل والعلم

والعمل .

لم يشهد الفجر فى الصحراء . لم يشعر بالنشوة التى

تحقق اليقين بلا حاجة إلى دليل . لم تطرح الدنيا تحت قدميه

حفنة من تراب .

وقال مصطفى :

— إنى مؤمن بالعلم والعقل ولكن بين يدي الآن قصيدة كتبها

عمر فى الفترة الأخيرة قبل أن ينبذ الشعر نهائيا ، وهى تقطع

بثورته على العقل ..

فقال عثمان وهو يتمالك أعصابه :

— يسرنى أن أسمعها ..

هم عمر بالاعتراض ولكن مصطفى بسط ورقة استخرجها

من جيبه وراح يقرأ :

لأننى لم أَلعب فى الهواء

ولا سكنت فى خط الاستواء



فتساءل عمر مضجرا : ترى هل تموت
الأسئلة إذا قامت دولة الملايين ؟ ..

لم يستهونى شيء إلا الأرق
وشجرة لا تنثنى للعاصفة
وبناء لا تطرف له عين

وساد صمت ثقيل . ثم قال عثمان :

— لم أفهم شيئا ..

وقال عمر :

— وأنا لم أقل شعرا ، كنت أهلوس تحت تأثير حال مرضية .

فقال مصطفى :

— ولكن الفن الحديث عموما يتنفس في هذه الثورة .

فقال عثمان بازدياء :

— إنها أنين نظام يحتضر ..

فقال مصطفى :

— ربما كان هذا حقا على المستوى الحضارى ولكننى أقول

كفنان قديم إنها أزمة فنية أيضا ، أزمة فنان يبحث عن شكل

جديد بعد أن أعياء المضمون ..

— ولم أعياء المضمون ؟

— لأنه كلما عثر على موضوع وجده مبتذلا من كثرة

الاستعمال ..

— ولكن الفنان يضيف من نفسه على موضوعه فيصير جديدا

في هذه الحدود على الأقل .

— لم يعد هذا مقنعا في عصر الثورات الجذرية ، عصر العلم ،

وقد تبوأ العلم العرش فوجد الفنان نفسه ضمن الحاشية المنبوذة

الجاهلة ، وكم ود أن يقتحم الحقائق الكبرى ولكن أعياء العجز

والجهل ، وحز في نفسه فقدان عرشه فانقلب (غاضبا) أو (عدوا

للرواية) أو (لا معقولا) ، ولما استحوز العلماء على الإعجاب

بمعادلاتهم غير المفهومة نزع الفنانون المنهارون إلى سرقة

الإعجاب باستحداث آثار شاذة مبهمة غريبة ، وأنت إن لم
تستطع أن تستلفت أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد
تستطيعه بأن تجرى في ميدان الأوبرا عاريا ..

ولأول مرة يضحك عثمان عاليا ، واستطرد مصطفى :
— ولذلك اخترت أبسط الطرق وأصدقها وهو أن أكون
مسليا..

وقال عمر لنفسه لماذا أتعب نفسي في مناقشة أمور لا
تهمنى؟

— ١٧ —

خرس الفجر ، على ضفاف النيل أو فى الشرفة أو فى
الصحراء خرس الفجر . وليس من شاهد على أنه تكلم ذات مرة
إلا ذاكرة محطمة . وإدامة النظر والتطلع إلى أعلى واحترق
القلب لا تجدى شيئا ، والجوانح تنطوى على لوحة مشتعلة
صراخها يصك السماوات بلا أمل . وسخريات الشعر وشعر
مارجريت الذهبى وعينا وردة الرماديتان وطيف زينب الخارج
من الكنيسة أشباح شاحبة تهيم فى رأس أجوف . وضحكات
مصطفى تنعى أى أمل أما صخب عثمان فنذر نبي يبشر بالعدم.
وخاطبت المقاعد والجدران والنجوم والظلام ، وخاصمت الخلاء ،
وغازلت شيئا لم يوجد بعد ، حتى أراحنى أمل قائم فوعدنى
بالخراب الشامل . وقد هان كل شيء ، وتهتكت القوانين التى
تحكم الكائنات ، وتعذر التنبؤ بطلوع الشمس . كيف أقبل بعد
ذلك أن أنظر فى ملف قضية أو أن أناقش مشكلة تتعلق بميزانية
البيت ! . وقد قلت لحجرتى المغلفة :

— أى خطأ كانت تلك الهدنة التى أرجعتنى إلى البيت !

وقلت للقطعة وهى تتمسح بساقى :

— سمعا وطاعة ، سأرحل عن المأوى المكتظ بالعواطف

المتطفلة المعوقة ..

ولم يبق من تسلييات إلا أن أرقص فوق قمة الهرم أو أقفز من فوق أعلى جسر إلى قاع النيل ، أو أقتحم الهيلتون عاريا ، ويقينا أن روما لم يحرقها نيرون ولكن هزمتها الأشواق اليائسة، كذلك تزلزل الأرض وتتفجر البراكين .

وقالت ورده فى التليفون :

— ترى هل نسيت صوتى ؟

فقال فى فتور :

— أهلا ورده ..

— ألا تزورنا ولو فى السنة مرة ؟

— كلا ولكنى تحت أمرك إن كنت فى حاجة إلى شىء ..

— أنا أحدثك بلغة القلب ..

فقال ممتعضا :

— القلب ! .. إنه مضخة ..

وفى لحظة ألم حاد لعن العلم المستعصى على أمثاله من البشر . وكان يتخفف من ألمه بالاستسلام لجنون السرعة وهو يندفع بسيارته فى أطراف القاهرة . وتعددت رحلاته بلا هدف إلى الفيوم أو القناطر أو طنطا أو الاسكندرية . ويندفع بجنون حتى يثير الفزع والسخط . وكثيرا ما يغادر القاهرة صباحا ثم يرجع إليها صباح اليوم الثانى دون نوم . وقد يدخل دكان بقال ليسكر أو يجلس فى التريانون لينام أو يشيع جنازة لا يعرفها ولا تعرفه ، أو يغلبه النوم عقب الفجر فينام فى السيارة أو على شاطئ النيل حتى الصباح . وذهب مرة إلى مكتبه . وجد عثمان منهما فى العمل بطاقة مذهلة . وسأله الرجل :

— أين كنت فى الأيام الماضية ؟

فرمقه باستهانة وقال :

— فى أماكن لا حصر لها ..

— أنت مرهق بلاريب ، ترى ماذا يدور فى رأسك ؟
وكان الألم قد حرره من الحرج والحياء والخوف ، حتى خوف
من عثمان قد اندثر ، فقال :
— أفكر فى تفجير الذرة فإن تعذر ذلك ففى القتل فإن تعذر
ذلك ففى الانتحار ؟!

فضحك عثمان ثم قال معترضاً :
— ولكن مكتبك ..
— لقد عاشرتنى مدة تكفى لأن تفهم ..
— حدثنى عما تنوى أن تفعله ..
فقال بتصميم :
— أن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله فى حياتى وهو ألا أفعل
شيئاً .

— لا شك فى أنك تمزح ..
— لم أكن جاداً كما أكون اليوم ..
فتراجع عثمان أمام تجهمة الصارم وقال برقة :
— ألا تفكر فى استشارة طبيب ؟
— لا أستشير أحداً فيما يجهله ..
وزحف صمت مرهق حتى خرقه عمر متسائلاً :
— وأنت هل تقصر جهودك على الحمامة ؟
— أجل ولكنى لا أكف عن التفكير ..
— هل تنقلب مرة أخرى خطراً يهدد الأمن ؟
فقال باسم :
— هذا شرف لا أستطيع أن أدعيه بعد ..

الحق أن ما يكتنفه من طنين يمنعه من حسن الاستماع إلى
الصمت . لا بد من الذهاب . وهوبحال من التوتر يسهل معها
الجهربأى سر . لذلك قال لزينب إنه سيوكلها عن نفسه فى

التصرف فيما يملك وأنه سيختفى عن مكتبه للعاملين فيه .
وأظلمت عيناها كما تظلمان تحت الضربات التي تتلقاها واحدة
بعد أخرى . وقال لها أنه صمم على ألا يشغل نفسه بشيء وأن
يزيح الدنيا عن عاتقه . ولها أن تعتبر الحال مرضا واضحا أو
غامضا ولكنه على أى حال لا يجد سبيلا أفضل من الخلو إلى
نفسه بعيدا عن الناس . وليس فى الموضوع امرأة ، يجب أن
تصدقته ، ولا لهو أو عبث ، ولكنها أزمة طاحنة بلغت ذروتها ولن
تنفجر إن كان مقدرا لها أن تنفجر إلا بالطريقة التى اختارها .
وتوسلت زينب قائلة :

— ولقد تركناك وشأنك ، إذا كنت كرهت العمل فاهجره ،
وإذا كان الحنين يراودك على الفن فاستجب له ، ولكن لا تهجرنا
إكراما لأبنائك ..

وخزه الكلام ولكنه قال إنه لا فائدة ترجى من ثنيه عن عزمه
الذى يسيره كالقضاء ، فقالت :

— لقد حدثنى مصطفى طويلا ، وألمنى أنك صارحته بما
تخفيه عنى ، ولكنى انتحلت لك بعض العذر أمام نفسى لغموض
الحال التى تعانىها ، ولا تؤاخذنى على عدم فهمى لما تبحت عنه
من معنى لوجودك أو للحياة ، ولكنى لا أجد علاقة بين ذلك وبين
انقلابك على عمالك ومستقبلك وأسرتك ، لماذا لا تعود إلى
استشارة الطبيب ؟

— لذلك لم أصارحك بكل شيء .

— ولكن المرض ليس بعيب ..

— إنك تظنين بى الجنون .

فبككت حتى اضطرب جذعها ولكنه لم يلن وقال بتصميمه :

— الحل الذى اخترت فيه الخير لنا جميعا .

فقالت بخراعة :

— اذهب إلى أى مكان حتى تسقود راحتك النفسية ثم عد إلينا ..

— ربما حدث ذلك ولكن من الأفضل أن نوطن النفس على ذهاب لا رجعة منه ..

فاسترسلت فى البكاء حتى قال :

— إن لم أفعل ذلك فإننى سأجن أو أنتحر ..

ووقفت وهى تقول :

— بثينة ليست طفلة ويجب أن تسمع رأيها .

ولكنه هتف بها :

— لا تضاعفى من عذابى ..

ومن اليسير أن يخمن ماسيقال عن مرضه ، عن عقله ، ولكن لا أهمية لذلك ألبتة . ولعله حق . إنه يخاطب الجماد والحيوان ويناقش الكائنات المنقرضة . ويرى أحيانا وهو ينطلق بسيارته الأرض المتماسكة وهى تتفتت ثم تتحول إلى شبكة مترامية من الذرات حتى يضطر إلى التوقف وهو يرجف . وأحيانا وهو يرنو إلى شجرة أو النيل تتحقق للمنظور شخصية حية ، وتتخذ هيئته ملامح خفية لا يعوزها الشعور أو الإدراك ، ويخيل إليه أنه يرامقه فى حذر ، وأنه يضع وجوده بازاء وجوده هو على مستوى الند للند ومفاخرا فى ذات الوقت بعراقته فى الوجود وخلوده النسبى فى الزمن . علام يدل ذلك ؟ ، وعلام يدل نبذه للعمل والأسرة والأصدقاء ؟ . وعليه فيجب أن يكون حذرا وإلا وجد نفسه مسوقا إلى مستشفى الأمراض العقلية .

وجاء مصطفى وعثمان للاجتماع به وأدرك أنهما دعيا إلى ذلك . ولم تنفع ضحكات مصطفى فى التخفيف من توتر الجو . ولم يكن يتكلم لدى استقبالهما . وجيء بالويسكى إلى الشرفة فشرب كأسا تحية للقادمين . وتبادلوا نظرات طويلة وشت بما

تخفيه من إشفاق . وظهرت زينب دقيقة واحدة لتحية الرجلين
وقالت وهى تهتم بالانصراف :

— كنا أسعد أسرة ، ولم يكن مثله فى الرجال أحد ، ثم انهار
كل شيء ..

وأزهى تصريحها روح التردد فلم يبق بد من الانقضاض على
الموضوع . وتساءل مصطفى :

— هل حق ما سمعنا ؟

ولم يجب مكتفيا بإشارة من وجهه المصمم .

— إذن فأنت ذاهب !

أجاب بصراحة كنصل مرهف :

— أجل .

— إلى أين ؟

— مكان ما ..

— ولكن أين ؟

ولم يجب . المكان رغم لا نهائيته سجن . ومصطفى أحمق إذ
يستعمل لغة لا معنى لها .

— إذن جاء دورنا لتلقى بنا فى صندوق الزبالة .

فقال عابسا :

— أمس بكت بثينة ولكنها لم تسمع خيرا من هذا الجواب .

فقال مصطفى فى جزع :

— أهذا هو آخر عهدنا بك ؟

— هو آخر عهدى بكل شيء .

— سوف أبكى بجماع روحى وجسدى .

— وأنا كابدت ما هو أشق من البكاء .

فتساءل مصطفى بحرارة :

— لأية غاية ؟

- فقال بمرارة :
- لأنطح الصخر .
- فقال عثمان :
- لا أفهم .
- ولكن مصطفى واصل حديثه قائلا :
- ليكن ما تشاء ولكن فلتبقى بيننا ..
- يجب أن أذهب .
- فقال عثمان وهو لا يحول عنه عينيه :
- ألا ترى أن تستشير الطبيب ؟
- فأجاب بحدة :
- لست فى حاجة إلى إنسان ..
- ولكنك بنيان قائم ولا يجوز أن يتهدم للاشيء .
- لست شيئا فى الواقع ..
- لا يستطيع الإنسان أن يفكر وهو بين الناس ؟
- لن أفكر ألبتة .
- ماذا ستفعل إذن ؟
- فقال بضيق :
- لا سبيل للتفاهم فيما بيننا .
- لكننى على ثقة من أنك تدفع بنفسك إلى الهلاك .
- أنت الذى تدفع نفسك إلى الهلاك .
- إذا كان لابد من الهلاك فمن الأفضل أن ننضم إلى ..
- فقال ملوحا فى قرف :
- لن أنظر إلى الوراء .
- إنك تجرى فى الحقيقة وراء لا شيء ..
- نشوة الفجر شيء أم لا شيء ؟ . وهل تكمن حقيقة كل شيء فى اللاشيء ؟ . ومتى ينتهى العذاب !

واستطرد عثمان قائلا :
— تصور أن يقتدى بك العقلاء فى هذه الدنيا !
— فليبق العقلاء للدنيا .
— لكنك واحد منهم .
فمسح على رأسه ثم كور قبضته ورمى بها إلى الأرض
بازدراء قائلا :
— هاك عقلى تحت قدميك .
فتساءل عثمان محزونا :
— ما جدوى هذه المناقشة ؟
— هى عقيمة ولا جدوى منها ، وغدا لن تقع على عين ..
وقال مصطفى متأوها :
— لا أصدق كلمة واحدة مما يقال .
فقال وهو يخفى عينيه فى الأرض :
— من الخير أن تنسيانى كأن لم أكن .
فقال مصطفى :
— ولكنه فوق الاحتمال .
وتصلب وجه عثمان فى حزن غاضب . وأسدل عمر على وجهه
ستارا أصفر من اللامبالاة . وتحول شخصاهما فى نظره إلى
مجموعتين من الذرات فامحت ذواتهما . ومن صراعه الباطنى
أدرك أن حبهما مازال عالقا بفؤاده كأسرته : ذلك الصراع الذى
يحمل أعصابه مالا تحتل من ضغط وتمزق . وتاقت نفسه إلى
لحظة الانتصار المأمولة ، لحظة التحرر الكامل .

— ١٨ —

عندما يظفر قلبك بضالته سيجد نفسه خارج أسوار الزمان
والمكان . ولكنك ما زلت تشقى باللوعة فى البيت الصغير ككوخ
تنبسط من حولك الأرض المعشوشبة ، وتحيط بها على مدى
السور أشجار السرو الرفيعة المقام . متى اليوم الذى يغيب عنك
السرو وما يحدق به . يوم تسكت أشجان الليل المستقطرة من
هسيس النبات وزفرات الصراصير ونقيق الضفادع . يوم لا
ترهقك ذكرى ماضية ويستأثر بك اللاشئ . وتتلاشى أصداء
الترانيم الهندية والتأوهات الفارسية فتستقبل شعاع النشوة
الوردى بلا وسيط . نشوة الفجر العصماء العصية لتشدك بقوة
المجهول إلى قبة السماء . هنالك لن يعرف قلبك النوم ولا حواسك
الصحو ..

وقفت بثينة رشيقة كشجرة السرو وأجالت عينها
الخضراوين بين الحديقة والحقول المترامية وراء الأسوار والترعة
الجارية بين صفين من أشجار السنط وسأله فى عتاب :
— أمن أجل هذا ؟

ضعفت أمام طلعتها فمسحت برفق على موجات شعرها
وغمغمت :

— بل من أجل اللاشئ .

— ألا تخاف الوحشة فى الخلاء ؟

فهمست فى أذنها :

— أرهقتنى الوحشة فى الزحام ..

وتباعدت خطوة وهى تقول :

— أمس عثمان قال ..

فقاطعها برفق :

— ألم تفتننى يا بنيتى بعد إلى أننى أصم ؟ !

فغادرت الحديقة من الباب الخشبى القصير المغروس فى
سور اللبلاب والنجرس واختفت عن الأنظار . وتنهدت فى اعياء
وفتحت عينى فى الظلام . ماذا يعنى هذا الحلم إلا أننى لم أبرأ
بعد من نداء الحياة ؟ . وكيف أفكر فىك طيلة يقظتى ثم تعبث
بمنامى الأهواء ؟

وعانقك مصطفى بحرارة ومرح ثم نظرفى عينيك نظرة حادة
وحزينة . ورأيت مكان صلغته شعرا أسود غزيرا مسترسلا إلى
الوراء فلم تملك أن تشير إليه قائلا :

— مبارك عليك شعرك ولكن ماذا فعلت ؟

فقال بجدية غير معهودة فيه :

— تلوت سورة الرحمن عند السحر .

فسأله بدهشة :

— ومتى عرفت الطريق إلى الرحمن ؟

— منذ اعتزلت أنت العالم فى هذا المكان .

— ولم جئت ؟

— لأقول لك أن زينب تعمل بقوة عشرة من الرجال .

— لها الله .

وألقى على البيت والحديقة والحقول نظرة ثم قال :
— ما أجدر هذا البيت بأن يكون مهد غرام أو مثنوى فنان :
فجفلت قائلاً :

— ها أنت تعود إلى الهزل . فتأوه قائلاً :
— لم يبق لنا إلا الهزل نحن بنو العصر الحجري ، ولكنك
بدل أن تهزل جننت بحب اليأس ..
فتراجعت وأنا أقول :

— ألم تدرك أنني ميت الحواس ؟
فهز منكبيه استهانة وتسلق شجرة سرو حتى بدا أعلى من
البدر الصاعد فوق الأفق ، وراح يحرك يده بجرس ذى رنين شديد
حتى زحفت من الحشرات أنواع شتى ومضت ترقص حول الشجرة
في ضوء القمر . والتمعت صلته تحت ضوء القمر .
— وتنهدت في إعياء وفتحت عيني في الظلام . ماذا يعنى
الحلم إلا أنني لم أبرأ بعد من نداء الحياة ؟ وكيف أفكر فيك
طيلة يقظتى ثم تعبت بمنامى الأهواء ؟ !

وأمس جلت بأنحاء الحديقة مرددا شعرا المجنون . وعندما بلغت
السور الشمالى الذى ترى وراءه التروعة هزنى صوت حلقى
وهو يصيح :

— أين الباب يا رجل ؟
عثمان يعتلى دراجه بخارية مزركشة العجلة والمقود بالأعلام
الصغيرة على طريقة أهل البلد فى الأعياد . وقلت له دون
مجاملة :
— لا تدخل .
فهتف :

— ألم تدريب المعجزة ؟ .. لقد عبرت سطح التربة بالدراجة .
— لا أو من بالمعجزات !
فضحك عاليا وهو يقول :
— لكننا فى عصر المعجزات ..
تراجعت خطوة وأنا أسأله :
— ماذا تريد ؟
فقال بجدية وجلال :
— جئتكم موفدا من الأسرة .
— لا أسرة لى .
— ألم تدريب المعجزة ، لقد ظهر لأسرتك فروع جديدة فى القارات
الخمس أفلا تود أن ترجع إلى ذلك المزيج العجيب من البلاتين
والفحم ؟ !
فقلت متحمدا :
— ألم تدر بأن أسرتنا الحقيقية هى اللاشئ ؟ !
فقال مهددا :
— سأطاردك بفرقة كاملة من الكلاب المدربة .
وقعقع أزيز الدراجة وارتفع نباح الكلاب فتنهدت فى اعياء
وفتحت عيني فى الظلام . ماذا يعنى هذا الحلم ألا أنى لم أبرأ
بعد ؟ . وكيف أفكر فىك طيلة يقظتى ثم تعبث ..

وسهرت الليل كله فى الحديقة . ولم يكن معنى فى الظلام
شئ ، والنجوم تومض فى القبة . وساءلتها عن أشواقى .
وساءلتها متى يتحقق الحلم المنشود . وصرخت حتى اضطربت
لصراخى خلايا السرو . وعاتبته كل شئ ولا شئ . ورنوت إلى
نجم متألق بين النجوم .

— أريد أن أرى .

فهمس :

— انظر .

فنظرت فرأيت فراغا لا شيء فيه . ولكن ليس هذا ما أتوق
لرؤية وجهه فهمس :

— أنظر .

فأحسرت هالة من الظلام عن رجل عار وحشى الملامح مسدل
الشعر حتى المنكبين ، يقبض بيمناه على عصا من الحجر الصلب
ويتحفظ للقتال . . وشب نحوه وحش لم تره عينى من قبل كأنه
تمساح ولكنه يقوم على أربع أرجل طوال وله وجه ثور . ودارت
بينهما معركة دامية انتهت بسقوط الوحش وتراجع الرجل
مترنحا والدماء النازفة تخضب وجهه وصدره وتسيل فوق
ذراعيه ، ولكنه رغم آلامه ابتسم .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :
— أنظر .

فانجابت الظلمة عن فسحة من المكان تكتنفها غابة وينهض
فى خلفيتها جبل . وانحدر من الجبل قوم عرايا مدججون بالأحجار
فتصدى لهم آخرون من الغابة لا يقلون عنهم وحشية أو رغبة
فى القتال . ودارت معركة عنيفة وعلا الصراخ وسالت الدماء .
حتى الوحوش الكاسرة ولت لائذة بأعالى الشجر والقنوات وقمة
الجبل . وانهمز أهل الغابة فسقط منهم من سقط ، وأسر من أسر
وهلأ أهل الجبل .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم . فهمس :
— انظر .

فرأيت جموعا تعكف على الأرض تحرثها وتزرعها ، وقوافل
تسير محملة بالبضائع ، وطائفة تمتطى الخيل مدججة بالسلاح

متأهبة للقتال .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :
— أنظر .

فرايت جبهة عالية يرتسم التفكير في أخايدها وصاحبها
منكب على أوراق يخط فوق صفحاتها أرقاما لا نهاية لها .
ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :
— أنظر .

ولم أر شيئا أول الأمر . ولكنى شعرت بوثبة تبشر بالنصر
وشاع في صدري شعور غامر بالسعادة . وتذكرت الاحساس
الباهر الذي سبق الرؤيا ساعة الفجر بالصحراء . ولم أشك في
أن النشوة آتية بموسيقاها وأن العريس سيبرز وجهه . وانجابت
الظلمة عن منظر أخذ في الوضوح رويدا والتركد ، وخفق قلبي
كما لم يخفق من قبل . وتمضض عن باقة ، هيئة باقة ورد ، غير
أن وجوها أدمية حلت محل ورودها . وما لبثت أن تبينت فيها
وجوه زينب وبثينة وسمير وجميلة وعثمان ومصطفى ووردة .
ذهلت من الدهشة وحملت فيها بإنكار . وباخ حماسى مرة واحدة
وتجرعت غصص الخيبة . ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت
تعلم . أين وجهه.. ولكن المنظر تشبث بكيثونته . وازداد مع
الوقت دقة ووضوحا، وتبادلت أشخاصه الألاعيب . تبدت زينب
برأس ورده ووردة برأس زينب . ولبس عثمان صلعة مصطفى
ونظر مصطفى إلى يعنى عثمان . وإذا بسمير يثب إلى الأرض
متخذا من رأس عثمان رأسا له ثم يحبو نحوى . وفزع فتعدوت
والكائن المركب من سمير وعثمان يتبعنى . وكلما زدت من
سرعتى زاد هو من سرعته وإصراره . وقفزت من فوق السور
الأخضر فوثب الآخر من فوقه كجرادة . وركضت بحذاء التربة
والآخر فى أثرى كثور عنيد . وعدوت ، وعدوت حتى سرى

الإنهاك فى عضلاتى وانبهرت أنفاسى وخارت قواى ودار رأسى
 فهويت إلى الأرض . انطرحت على وجهى فوق عشب ندى
 وقدما الآخر تقتربان منى فى إصرار وكأنهما تزدادان قوة . عبث
 الشيطان بالحلم . وبدل من النشوة حلت اللعنة واستحالت الجنة
 ملعبا للمهرجين وتخليت عن فكرة المقاومة وأستسلمت للأرض
 المعشوشبة . ورفعت رأسى قليلا لأنظر فيما حولى . سمعت
 صفصافة تترنم ببيت من الشعر . واقتربت منى بكرة قائلة إنها
 سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء ، وزحفت حية رقطاع
 ثم بصقت أنيابها السامة وراحت ترقص فى مرج . وانتصب
 الثعلب حارسا بين الدجاج . واجتمعت جوقة من الخنافس وغنت
 أغنية ملائكية . أما العقرب فتصدت لى فى لباس ممرضة .
 وتنهدت فى إعياء وفتحت عينى فى الظلام . ماذا يعنى هذا
 الحلم إلا أننى كنت أفكر فىك طيلة يقظتى ثم ..

— ١٩ —

استلقيت على ظهري فوق الحشائش رانيا إلى الأشجار
الراقصة بملاطفات النسيم في الظلام . أنتظر وإن طال الانتظار ،
وإذا بأقدام تقترب وصوت يهمس :

— مساء الخير يا عمر .

وانتصب شبح إلى جانبي . ما أكثر الأحلام ولكنني لا أرى
شيئا . وقال :

— كدت أياس من العثور عليك ، كيف ترقد هكذا ، ألا تخاف
الرطوبة ؟

وجلس إلى جانبي فوق الحشائش ومد يده ولكنني تجاهلته
فقال :

— أنسيت صوتي ؟ ألم تعرفني بعد ؟

قلت متأوها :

— متى يكف الشيطان عني !

— ماذا قلت يا عمر ؟ بالله حدثني فأنا في غاية من الضيق .

— من أنت ؟

— يا عجبا ! .. أنا عثمان خليل ..

— وماذا تريد ؟

— أنا عثمان ! ، لقد وقع المحذور وأنا مطارد ..

تحسست جسمه بيدى وقلت :

— ليس هذا بجسم سمير فماذا تعنى هذه المرة ؟

— سمير ! .. إنك تخيفنى ..

— ولكنى لن أخاف ولن أعدو كالمجنون ..

فلمس ذراعى وقال :

— بالله حدثنى كصديق ، لا تدفع بى إلى اليأس منك .

— وماذا يهم ؟

— أصغ إلى يا عمر ، إنى فى موقف خطير ، إنهم يبحثون

عنى فى كل مكان وإذا ألقوا القبض على هلكت ..

— إذن فانت الهارب هذه المرة ..

— سأختبئ عندك حتى أتمكن من الهرب .

فتساءلت فى حزن :

— كيف جاء بك الشيطان ؟

فأجاب بلهفة :

— كنا نعرف مكانك من أول يوم ، وليس ذلك بالمطلب العسير

على صحفى مدرب كمصطفى ، وكثيرا ما حام مصطفى حول

مسكنك وأوصى بك الفلاحين الذين يجيئونك بالطعام ، ولكننا

لم نرد أن نزعجك ..

فهتفت متأوها :

— هم الذين حالوا بينى وبين وجهه .

— بل لم نزعجك مرة واحدة طوال عام ونصف عام ..

— لن أبالى حتى إذا وضعت رأسك مكان رأس سمير !

فقال بحسرة :

— ماذا أصابك ؟ .. لا .. لا ، لن أصدق أنك لم تعرفنى بعد ..

— صدق أو لا تصدق .

— أصغ إلى يا عمر ، سأصارحك بحقيقة مذهلة ، لقد تزوجت



وزحفت حية رقدلاء ثم بصقت أنيابها السامة
وراحت ترقص في مراح ..

من بثينة !

— فليعبث الشيطان ما شاء له العبث .

فقال وهو يدنى وجهه من وجهي :

— رغم فارق السن تزوجنا ، هو الحب كما تعلم ، وفي بطنها

الآن ينبض جنين هو ابني وحفيدي !

— كما كنت ابني وعدوى !

— أما توقظك الأخبار العجيبة ؟

— كما لفظت الحية أنيابها السامة ورقصت ..

— يا للخسارة !

— هذا ما أردته دائما وما من مجيب ..

فربت على صدري برفق وقال :

— عد إلى وعيك ، إنهم في أشد الحاجة إليك ، لقد هربت في

اللحظة المناسبة ولكنهم يجدون في البحث عني ، ولقد فتشوا

مكتبك وأخشى أن يسيئوا بك الظن ، عد لتعلن براءتك وترمى

أسرتك ، بثينة تنتظر وليدا ، ولن ترائي أبدا ..

— وأنا لم أره ..

— ألا تريد أن تفهم ؟

— أموت كل يوم عشرات المرات كي أفهم ولكنني لا أفهم .

— ألم تفهم أنني زوج ابنتك وأنه مقضى على بالاختفاء أو

الموت ؟

— أجز حتى تسقط إعياء وسوف ترى الخنافس وهي تغنى ..

— يا للفظاعة ..

فهزني بشيء من الشدة وقال بغضب :

— اصبر لا وقت للهذيان ، يجب أن أفهمك كل شيء قبل أن

أذهب .

— أذهب ، لا تكدر صفو أحلامي .

- يا للتعاسة ، ماذا فعلت بنفسك ؟
— سوف ييأس الشيطان منى .
— اصح ، أسرتك فى خطر ، إذا اتجه الشك إليك فسيعرضون
للبهدة ، أنا لا أخاف على نفسى فقد نذرتها للهلاك ، ولكن يجب
أن تعود إليهم ..
— عد إلى الجحيم فهو مقرك .
وهزه مرة أخرى بحنق قائلاً :
— يجب أن أهرب ويجب أن تعود .
— ابق إذا شئت لترى بعينيك انتصارى .
فهز رأسه فى أسف وقال :
— يا لك من أحمق ، بددت مجدك فى البحث عن شيء غير
موجود .
— متى تصدق أنت أنك غير موجود ؟
نهض الرجل قائماً وهوى قول :
— أشهد أننى ينست منك رغم أن اليأس ليس فى قاموسى .
— هل قد ينس الشيطان ..
ابتعد الشبح فى الظلام وهوى قول بحزن :
— الوداع يا أخا الجهاد القديم .
عاد السكون إلى الليل . ولكن ذلك لم يطل . سرعان ما عاد
الرجل مهزولاً وهوى قول :
— جاءوا ، كيف اهدوا إلى بهذه السرعة ؟
وجرى فى الحديقة نحو السور الغربى ، وسرعان ما رجع
وهوى قول فى هياج .
— إننى محاصر ..
وجرى نحو المبنى الصغير . ورنوت إلى النجوم فى سلام
نسبى . ولكن صوتاً مزعجاً ترامى صياحه وهوى قول :

— سلم نفسك ، عثمان خليل .. سلم نفسك ، أنت محاصر من جميع الجهات .

لم أسمع جوابا واتجهت عيناى نحو مصدر الصوت الغارق فى بهيم الليل وغمغمت :
— الشيطان يتمادى فى عبثه ولكنى لست محاصرا ، بل أنا حى ..

وترامت الأصوات من جميع النواحي المكددة بالسور ،
واقتربت رويدا ، وصاح صوت أشد أزعاجا من الأول :
— المقاومة لا جدوى لها ولا معنى لها ..

ولم يرد المختبىء ، وغمغمت :
— كل شيء له معنى .

وإذا بأضواء كشافة تجتاح البيت من جميع الجهات فتجعله شعلة من نور ، وضاق الخناق على المكان كله ، وصاح الصوت :
— سلم يا عثمان ، اخرج رافعا ذراعيك ..
وتأوهت متمتما :

— متى تسكت عنى أصوات الشياطين !

وصاح الصوت الرهيب :

— ألا ترى أن أى مقاومة عبث ؟
فهمست :

— لا شيء فى الوجود عبث ..

واندفعت أقدام مصحوبة بصياح فى الناحية الخلفية للبيت الصغير ، وخرج شبح إلى الشرفة الأرضية المتصلة بالحديقة وزعق :

— انتهى .. انتهى .. قبض عليه .. وانتهى كل شيء .

وهمست :

— ليس لشيء نهاية .



وتنهدت في إعياء فتحت عيني . ماذا
يعني هذا الحلم إلا أنني لم أبرأ بعد !

واندفع عديد من الأشباح فى الحديقة راكضين نحو البيت .
وعثر أحد الراكضين بساقى فسقط على وجهه ، وصاح :

— حذار يوجد آخرون ..

وانطلق عيارنارى . وندت عنى تأوهة عميقة . وشعرت بألم
حاد كأنه ألم حقيقى لا عبث شيطان بحلم .

وتنهدت فى اعياء وفتحت عينى . ماذا يعنى هذا الحلم إلا
أننى لم أبرأ بعد . وكيف أفكر فىك طيلة يقظتى ثم تعبث بمنامى
الاهواء ولكن مهلا . أين أنا ؟ . أين النجوم ؟ أين أعشاب الحديقة
وأشجار السرو ؟ هذه سيارة تنطلق . وأنا راقد على مقعد طويل
جانبى يجلس على طرفه رجل . وعلى المقعد المواجه لى فى
الجانب الآخر من السيارة يجلس عثمان بين رجلين . لا شك أنى
ما زلت أحلم . وثم ألم فى منكبى يدفعنى إلى التأوه . وقال
صوت :

— من المؤكد أن الرصاصة اخترقت الترقوة ولكنه جرح
سطحى لا خطر منه .

ترى ماذا يعنى هذا الحلم ؟ . وأين يذهب بى ؟ . ومتى
يسكن الألم الحاد بمنكبى ؟ ومتى انتصر على الشيطان وعبثه ؟ .
ومتى تختفى من أحلامى الدنيا ومن فيها ؟ وتأوهت رغما عنى
فقال صوت :

— اصبر قليلا .

فقلت بتحد :

— زولوا لأرى النجوم .

— أنت بخير .

فقلت بعناد :

— إنى بخير ما انتصرت عليكم .

— أهدأ ، سيراك الطبيب فورا .

— لا حاجة بى إلى إنسان .

— لاتجهد نفسك بالكلام .

فقلت باصرار :

— لقد تكلمت الصفصافة ورقصت الحية وغنت الخنافس .

ومضى يردد ذلك بصوت خافت . وأغمض عينيه ولكن الألم
لم يسكن . وتساءل متى يرى وجهه ؟ ألم يهجر الدنيا من أجله ؟

خامره شعور بأن قلبه ينبض فى الواقع لا فى حلم ، وبأنه
راجع فى الحقيقة إلى الدنيا .

ووجد نفسه يحاول تذكر بيت من الشعر . متى قرأه ، وأى
شاعر غناه ؟

وتردد الشعر فى وعيه بوضوح عجيب :

— إن تكن تريدنى حقا فلم هجرتنى ! ؟

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عبث الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رأدوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليلي	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكرية	١٩٥٧	رواية
اللعن والكلاب	١٩٦١	رواية
السمان والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثوثة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
ممرامير	١٩٦٧	رواية
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	مجموعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة
		العاشر
		العاشر
		العاشر
		العاشر
		الثانية عشرة
		العاشر
		العاشر
		الثانية عشرة
		الرابعة عشرة
		الثانية عشرة
		الثانية عشرة
		الحادية عشرة
		التاسعة
		الثامنة
		الخامسة
		الثامنة
		السابعة
		السابعة
		السادسة
		الخامسة
		السابعة
		السادسة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	١٩٨٧ السابعة
شهر العسل	١٩٧١	١٩٨٢ السادسة
المرايا	١٩٧٢	١٩٨٠ الخامسة
الحب تحت المطر	١٩٧٣	١٩٨٠ الرابعة
الجريمة	١٩٧٣	١٩٨٤ الخامسة
الكرنك	١٩٧٤	١٩٨٦ السابعة
حكايات حارتنا	١٩٧٥	١٩٨٦ السادسة
قلب الليل	١٩٧٥	١٩٨١ الثالثة
حضرة المحترم	١٩٧٥	١٩٨٣ الرابعة
ملحمة الحرافيش	١٩٧٧	١٩٨٥ الرابعة
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
الشیطان يعظ	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
عصر الحب	١٩٨٠	١٩٨٧ الثانية
أفراح القبة	١٩٨١	١٩٨٧ الثالثة
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	١٩٨٥ الثانية
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	١٩٨٥ الثانية
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	١٩٨٣ رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	١٩٨٤ مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	١٩٨٥ رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	١٩٨٥ رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	١٩٨٧ رواية
صباح الورد	١٩٨٧	١٩٨٧ مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
الفجر الكاذب		مجموعة

رقم الايداع ٢٠٥٤

الترقيم الدولي ٦ - ٠١٠ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة

Bibliotheca Alexandrina



0296861

التمن

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه